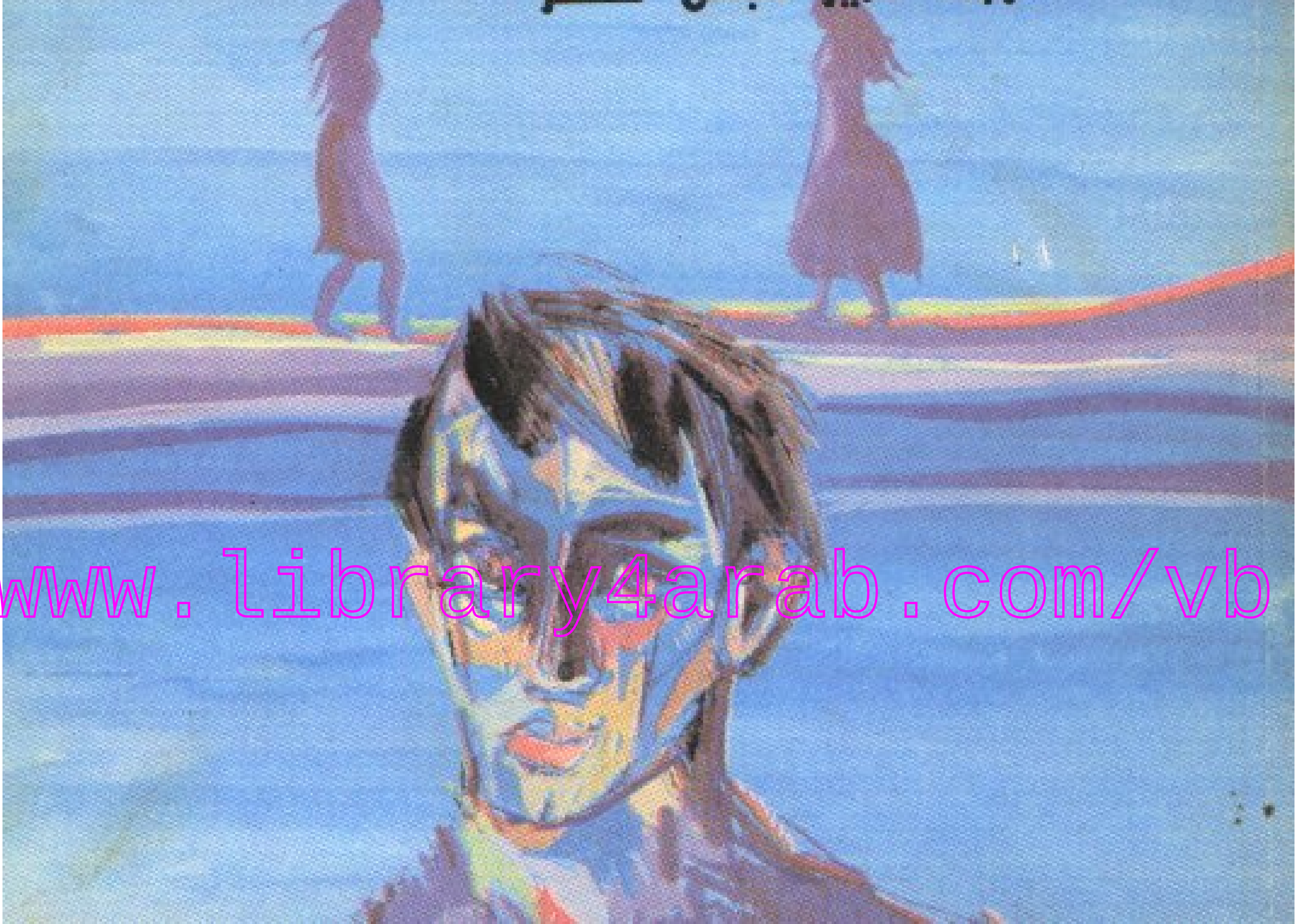
دار المأمون

الثعلب

تأليف دافيد هيربرت لورنس

ترجمة نمير عباس مظفر



www.library4arab.com/vb

www.library4arab.com/vb

www.library4arab.com/vb

www.library4arab.com/vb

الثعلب

www.library4arab.com/vb

دار المأمون

www.library4arab.com/vb

الثعلب

تأليف

دافيد هيربرت لورنس

ترجمة

نمير عباس مظفر

www.library4arab.com/vb

دار المأمون للترجمة والنشر

بغداد / ١٩٨٧

الثعلب

د . هـ لورنس

The Fox

D. H. Lawrence

دار المأمون للترجمة والنشر
وزارة الثقافة والاعلام

رقم الايداع في المكتبة الوطنية ببغداد (٦٧٠) لسنة ١٩٨٧
توجه المراسلات الى :
دار المأمون للترجمة والنشر
وزارة الثقافة والاعلام
بغداد ـ الجمهورية العراقية
ص . ب : ٢٤٠١٥
تلكس : ٢١٢٩٨٤
طبع بمطابع دار الحرية للطباعة ـ بغداد
ترجم عن اللغة الانكليزية

كانت الفتاتان تُعرفان كما هو معتاد باسمي عائلتيهما : بانفورد و مارتش . تولتا العمل في المزرعة بغية النهوض وحدهما باعبائها : أي انهما اعتزمتا تربية الدجاج ، بعد ان اختارتا الدواجن مصدراً للعيش ، وارتأتا ايضاً أضافة بقرة واحدة وعدد متواضع من البهائم الاخرىٰ . ولسوء الحظ لم تأت الامور بنتائج جيدة .

كانت بانفورد ضئيلة ، نحيلة ورقيقة ، تضع علىٰ عينيها نظارة . ومع ذلك كانت المستثمر الرئيس ، إذ كانت مارتش معدمة تقريباً . وقد شاء والد بانفورد ـ التاجر من ضاحية ازلنجتون ـ ان يعطي ابنته الفرصة لشق طريقها في الحياة منطلقاً بذلك من حبه إياها ، ورأفته بحالتها الصحية ولأن زواجها كان يبدو بعيد الاحتمال . كانت مارتش اقوىٰ عوداً ، وكانت قد تعلمت فن النجارة وصناعة الاثاث في مدارس ازلنجتون المسائية . كانت تحتل موقع الرجل في المزرعة . وقد شاركهما العيش في البدء جد بانفورد العجوز الذي كان مزارعاً فيما مضىٰ إلّا انه توفي بعد عام من وجوده ، في مزرعة بيلي . وبقيت الفتاتان بعدئذ وحيدتين .

لم تكن اية منهما يافعة ومن المؤكد انهما لم تكونا كبيرتين كذلك ، فقد كانتا في نهاية العقد الثاني من العمر ... وقد شرعتا بالعمل في مشروعهما بهمة ونشاط . كان لديهما اعداد من الدجاج ، باصنافه المختلفة ، وعدد محدود من البط اضافة الىٰ بقرتين في الحقل . وقد شاء سوء الحظ ان ترفض احدىٰ هاتين البقرتين البقاء داخل حدود المزرعة . وقد باءت محاولات مارتش جميعها لاحكام الطوق عليها

بالفشل ، إذ كان بإستطاعتها دوماً أن تجد لنفسها منفذاً الىٰ خارج المزرعة المجاورة ... وسرعان ما تهرع مارتش وبانفورد محاولتين ارجاعها دون جدوى .. وهكذا اضطرت الفتاتان الىٰ بيع هذه البقرة الحرون بعد يأسهما من ردعها . ثم توفي جد بانفورد العجوز عندما كانت البقرة الثانية توشك ان تضع عجلها الاول مما اضطر بانفورد ومارتش الىٰ بيعها وهم على شيء من الذعر والهلع تهيباً وتهرباً من الموقف الجديد الذي كان سيترتب علىٰ ولادتها .. وهكذا انحصر اهتمامهما في تربية الدجاج والبط .

وعلى الرغم من الكدر القليل الذي اصاب الفتاتين إلّا انهما وجدتا الراحة بعد التخلص من البقرتين ، فالحياة لم تخلق لتكون وقفاً على العمل المضني .. هذا ما اجتمعت عليه الفتاتان ، لاسيما ان العناية بالدواجن فيها من العناء ما يكفي . كان الدجاج يوضع في البناية الكبيرة التي كانت حظيرة وسقيفة لايواء الابقار في الماضي ، وبذلك صار لهذه الطيور مأوىٰ جميل كان متوقعاً ان تعيش فيه بسعادة وراحة تامتين . وبدت فعلاً هذه الطيور في حالة جيدة إلّا أن استعدادها للتعرض لانواع الامراض الغريبة ، وما فرضته رعايتها من متطلبات صعبة ، اضافة الىٰ رفضها وضع البيض باصرار مستمر ، قد اثار سخط الفتاتين ونفورهما .

كان العبء الاكبر من العمل خارج المنزل يقع علىٰ عاتق مارتش . وكانت عند ظهورها خارج المنزل بسروالها ولفافتي ساقيها ومعطفها المطوق بحزام ، مُرخية قبعتها علىٰ رأسها ـ تبدو وكأنها شاب رشيق متزن الحركة ، اذ كان منكباها مستقيمين ، وكانت تتنقل بحركات

حرة واثقة فيها مسحة مشوبة بالسخرية ، أو عدم الاكتراث .. غير أن وجهها لم يكن وجه رجل قطعاً . كانت خصلات شعرها المتموج الداكن تتطاير كلما انحنت ، وكانت عيناها الكبيرتان ، الواسعتان ، الداكنتان تجمعان عند رفعهما ، التحفظ والجفول والخجل والتهكم في آن واحد . أما فمها فيكاد يكون منكمشاً ، كأنه في حالة ألم وسخرية ... كان ثمة غرابة وغموض في مظهرها . كان من عادتها الوقوف بتوازن على قدم واحدة ، وهي تراقب دجاجها الذي كان يعبث لاهياً في طين الباحة المنحدرة ، وتنادي دجاجتها البيضاء المفضلة التي كانت تستجيب للنداء عند سماع اسمها ... وعندما كانت تقف لتراقب رعيتها من ذوات الارجل الثلاثية الاصابع ، كان في عينيها الداكنتين الكبيرتين ثمة ومضة نافذة ساخرة ، وكان في نبرات صوتها انعكاس للنقد الساخر نفسه ، حين كانت تكلم دجاجتها المفضلة (باتي) التي اعتادت ان تداعب جزمة سيدتها بمنقارها تعبيراً عن مودتها .

على الرغم من جهود مارتش إلّا ان تربية الدواجن في مزرعة بيلي لم تكن تجربة مجدية . فعندما كانت تقدم لدجاجها وجبة الصباح الساخنة ، على وفق الارشادات ، لاحظت ما كانت تسببه هذه الوجبة لدجاجها من ثقل وكسل عدة ساعات ، فكانت مارتش تتوقع اتكاء دجاجها على اعمدة السقيفة في اثناء عملية الهضم البطيئة . وكانت في الحين نفسه تعرف جيداً ما كان يفترض ان يقوم به الدجاج من خربشة وبحث عما يؤكل لو كان في وضع طبيعي . ازاء هذه الحال قرّرت مارتش تقديم الوجبة الساخنة هذه في المساء ليكون

النوم بعد ذلك كفيلاً بحل المشكلة . وهذا ما فعلته فعلاً ، فما اختلف الامر . من جانب آخر ، لم تكن ظروف الحرب ملائمة لمشاريع تربية الدواجن اذ لم يكن الطعام نادراً حسب ، بل ان ما توافر منه كان رديئاً . ولدىٰ صدور قانون التوقيت الصيفي ، وما واكبه من تقديم التوقيت عن الوقت القياسي ، كان دجاج مزرعة (بيلي) يرفض باصرار النوم في الوقت المعتاد ، اي في حدود التاسعة مساءً علىٰ وفق التوقيت الصيفي . كان هذا الوقت في الواقع متأخراً حقاً ، فقد كان الدجاج مصدر ازعاج كبير ، اذ لم يكن الهدوء ليستتب في المزرعة وتعم السكينة فيها إلّا بعد ان يكون الدجاج قد أوىٰ وخلد الىٰ سباته . انه الآن يسرح ويمرح حتىٰ العاشرة بل حتىٰ ما بعدها دون ان يكلف نفسه حتىٰ مشقة النظر الىٰ مأواه .

لم تؤمن بانفورد ومارتش بالعيش من اجل العمل فقط . كانتا في الواقع ترغبان في المطالعة او التجوال مساءً علىٰ دراجتيهما الهوائيتين . ولربما رغبت مارتش في الانهماك بنقش الخطوط المنحنية علىٰ الخزف لتشكل منها صورة بجعة علىٰ خلفية خضراء اللون . أو التفرغ لصنع واقية نار خشبية بأسلوب فني متقن غاية الاتقان إذ كان لمارتش نزوات غريبة ونزعات لم يكن من السهل اشباعها . غير أن هذه الطيور الحمقاء وقفت عائقاً بازاء كل هذه الاماني والرغبات .

كان ثمة شرّ أعظم من أي شر آخر . فقد كانت مزرعة (بيلي) مقاطعة سكنية صغيرة تشتمل علىٰ المسكن وما حوله من ارض ومبانٍ اخرىٰ . وقد أنشىء علىٰ ارضها اسطبل خشبي لايواء البهائم ،

ومنزل ذو سقف محدب عريق في القدم . كانت المزرعة تقع علىٰ بعد حقل واحد من حافة الغابة . وقد غدا الثعلب منذ اندلاع الحرب شيطاناً يعبث في الارض فساداً إذ اعتاد اختطاف الدجاج امام عيني بانفورد ومارتش . كانت بانفورد تقف مذهولة لتمعن النظر عبر نظارتها الكبيرة عند كل صيحة ورفرفة تسمعها قربها لتكتشف بعد فوات الأوان اختفاء دجاجة اخرىٰ . كان ذلك امراً مثبطاً للهمة .

قامت الفتاتان بما استطاعتاه لمعالجة الموقف . وما ان اباح القانون قتل الثعالب حتىٰ وقفت الفتاتان حارستين تمسكان بالسلاح خلال الساعات التي كان الثعلب الماكر يفضلها لاصطياد فرائسه من المزرعة . لم يكن هذا الاجراء مجدياً . كان الثعلب اسرع منهما دوماً .. وهكذا مرت سنة اخرىٰ واخرىٰ بعدها ، لتجد الفتاتان انهما كانتا ، علىٰ حد تعبير بانفورد ، تعيشان علىٰ الخسارة . ولمعالجة هذا الجانب من الامر لجأتا في احد الأصياف الىٰ تأجير المزرعة والعيش خلال تلك الفترة في عربة قديمة للسكك الحديد ، كانت في الاصل قد وضعت في طرف بعيد من الحقل لاستخدامها منزلاً للنزهة . لم تخل هذه التجربة من تسلية الىٰ جانب ما حققته من دعم للحالة المالية . مع ذلك ، لم يكن هنالك ما يدعو الىٰ التفاؤل .

وعلى الرغم من الصداقة الحميمة التي ربطت بانفورد ومارتش - وبغض النظر عن رقة شعور بانفورد ، وحدة مزاجها ، فقد كانت عطوفة وكريمة . والىٰ جانب غرابة اطوار مارتش وميلها الىٰ الانغماس في شؤونها الخاصة ، كانت شهمة واسعة الصدر - فإن وجودهما في تلك العزلة الطويلة جعلهما عرضة بعض الشيء لسرعة

غضب احداهما على الاخرى ، وضيق احداهما بالاخرى . كان على مارتش القيام بأربعة اخماس العمل في المزرعة . وعلى الرغم من انها لم تجد بأساً في ذلك ، إلّا أن بوادر الخلاص من هذه المسؤولية بدت بعيدة جداً ، وقد انعكس ذلك على ما كانت تشعه عيناها احياناً من بريق عجيب . ازاء ذلك كانت بانفورد تشعر بقلق وتوتر اعصاب يدفعانها الى القنوط ، مما كان يثير سخط مارتش ويجبرها على تعنيف رفيقتها بأسلوب لم يخل من عنف وقسوة .

كانت الفتاتان ، كما بدتا ، تتجرعان مرارة الفشل وتفقدان الامل بطريقة أو بأخرى على مضي الشهور . في خضم العزلة التي عاشتاها في تلك الحقول المجاورة للغابة ، وسط ريف شاسع أمتد بعمق وغموض نحو تلال (الحصان الابيض) المستديرة التي لاحت من مسافة بعيدة ، فقد بدتا مرغمتين على المضي في الحياة وحدهما غير آبهتين لأحد . لم يكن ثمة من يبدد لهما عزلتهما ـ ولم يكن ثمة أمل .

أثار الثعلب سخط الفتاتين حقاً ، فقد اضطرهما الى حمل السلاح والقيام بالحراسة كلما خرج دجاجهما من مأواه في الصباح الباكر من أيام الصيف ، وكانت الحال نفسها تتكرر ايضاً عند حلول المساء . كان الثعلب ماكراً غاية المكر . كان ينزلق بتأنٍّ وسط العشب العالي ومثل الافعى يصعب اكتشافه . كان على ما بدا يتعمد مراوغة الفتاتين . وقد استطاعت مارتش أن تلمح في مناسبة أو مناسبتين طرفاً من ذيله الكثيف او خياله الضارب الى الحمرة وسط العشب فحاولت قتله برصاص بندقيتها ، إلا انه لم يأبه لذلك .

ذات مساء وقفت مارتش تتأبط بندقيتها وقد ادارت ظهرها للغروب . كان شعرها محشوراً تحت قبعتها .. وكانت على عادتها تراقب وتتأمل في آن واحد ، كانت عيناها واعيتين حادتين ، أما عقلها الباطن فقد سرح بعيداً عما كانت ترى . كانت تنتقل دائماً الى حالة الاستغراق الغريبة هذه وفمها ملتو بعض الشي .. أفكانت مارتش هناك تعي وجودها أم لا ؟ تلكً هي المسألة .

كان الوقت نهاية شهر آب ، وقد بدت الاشجار المصطفة على حافة الغابة في وضح النهار مزيجاً قاتماً من اللونين البني والاخضر ، ومن خلفها كانت أشجار الصنوبر بأغصانها وجذوعها العارية النحاسية اللون تتلامع في الهواء . وعلى مسافة أقرب ، كان العشب البري بسوقه الطويلة المشربة بالسمرة قد امتلأ ضياءً . كان دجاج المزرعة يتنقل هنا وهناك وكان البط مايزال يسبح في البركة تحت اشجار الصنوبر . نظرت مارتش الى ذلك كله إلّا انها لم تر شيئاً ، أنحدر اليها صوت بانفورد وهي تتحدث من بعيد الى الدجاج . إلّا أنها لم تسمع . فيم كانت تفكر ؟ الله اعلم ! كان وعيها إن صح التعبير ، مكبوحاً .

خفضت مارتش عينيها لتجد الثعلب فجأة يقف أمامها . كان ذقنه مضغوطاً الى الاسفل ، بينما اتجهت عيناه الى الاعلى . وسرعان ما التقت عيناه بعيني مارتش ... لقد عرفها . وقفت مسحورة إذ أنها هي ايضاً قد عرفت انه عرفها . وما ان أمعن النظر فيها حتى شعرت بأن نفسها قد خذلتها . لقد عرفها من غير أن يشعر بخوف أو رهبة .

وبعد صراع ، استطاعت مارتش بشيء من الارتباك أن تستعيد وعيها لتجد الثعلب ينسل هارباً . رأته وهو يثب فوق بعض الجذوع والاغصان الساقطة بقفزات بطيئة لم تخل من تحدٍ ووقاحة . ثم استدار ليرميها بنظرة خاطفة ، واستمر بعدها مولياً أدباره بهدوء . رأت ذيله وقد انتصب ناعماً كالريشة ، كما لاحظت خفة ردفيه الابيضين ورشاقتهما ، وما هي إلّا لحظات حتىٰ توارىٰ عن الانظار بهدوء يشبه هدوء الريح .

علقت بندقيتها علىٰ كتفها وقد زمت شفتيها . كانت تدرك جيداً ان من السخف أن تتظاهر بالرمي . طفقت تمشي ببطء خلف الثعلب سالكة اتجاهه نفسه .. كانت تسير ببطء وخيلاء . كانت تتوقع أن تجده ، بل كانت عازمة علىٰ ايجاده ، إلّا أنها لم تكن قد قدرت ما تعمله أن قُدِّر لها ان تجده . كانت عازمة علىٰ إيجاده .. ولذلك استمرت في السير قرب الغابة بذهن شارد وقد توهجت عيناها ببريق مشرق وعلا خديها تورد خفيف .

واخيراً ادركت ان بانفورد كانت تناديها . حاولت الاصغاء ، واستدارت لتستجيب بشيء يشبه الصرخة . وكانت من بعد تسير ثانية بخطىٰ واسعة صوب المزرعة . كانت الشمس الحمراء تغرب ودجاج المزرعة يعود الىٰ مأواه . راقبت مارتش هذه المخلوقات ، البيضاء منها والسوداء ، تتجمع باتجاه الحضيرة . كانت تراقب وهي ماتزال تحت تأثير السحر الذي تملكها إلّا أنها لم تكن ترىٰ شيئاً . وبايعاز تلقائي من عقلها الباطن أدركت أن الوقت حان لغلق الباب .

دخلت البيت لتتناول وجبة العشاء التي كانت بانفورد قد اعدتها . كانت بانفورد تتكلم دون تكلف وبدت مارتش مصغية بطريقتها الرجولية النائية وهي تجيب عن اسئلة بانفورد بين حين وآخر باقتضاب ، ولكنها بدت طوال الوقت كأنها مأخوذة بسحر . وما أن انتهت وجبة العشاء حتىٰ نهضت ثانية استعداداً للخروج من المنزل دون ذكر سبب لذلك .

أخذت بندقيتها لتفتش عن الثعلب الذي كان قد رفع بصره ليحرجها بنظرات نفذت الىٰ عقلها . لم تفكر به كثيراً لقد اصبحت ملكه ، لقد رأت عينيه الداكنتين الماكرتين ، الجريئتين تنظران اليها ، لا بل تعرفانها . لقد شعرت بأنه قد تمكن من الاستحواذ علىٰ روحها بطريقة خفية . لقد ادركت كيف كان يخفض ذقنه كلما أراد النظر الىٰ الاعلىٰ ، وعرفت خطمه ولونيه البني المذهب والابيض المائل الىٰ السمرة ، ثم استعادت في مخيلتها ثانية كيف رماها من وراء كتفه بنظرته التي جمعت بين الاغراء والازدراء والمكر . وهكذا مضت الىٰ حافة الغابة ، ببندقيتها وعينيها الكبيرتين المتوهجتين الجافلتين . خلال ذلك خيم الليل ، وبرز قمر منير فوق اشجار الصنوبر . ثم انحدر صوت بانفورد ثانية وهي تنادي رفيقتها . دخلت مارتش الىٰ البيت وقضت ما لديها من اعمال بصمت كاد يكون مطبقاً . تفحصت بندقيتها وقامت بتنظيفها وهي تسبح في تأملاتها بشرود ذهن تحت ضوء المصباح ثم خرجت من المنزل تحت ضوء القمر لتتأكد من ان كل شيء كان علىٰ مايرام . وما ان شاهدت القمم المعتمة لاشجار الصنوبر تبرز امام سماء اصطبغت بحمرة قانية ،

www.library4arab.com/vb

حتى شعرت بحنين الىٰ الثعلب ، ذلك الثعلب الذي أرادت ملاحقته ببندقيتها .

مضت عدة ايام قبل ان تخبر مارتش صديقتها بانفورد عن الامر . وعلىٰ حين غرة ، قالت مارتش في احدىٰ الأمسيات : «كاد الثعلب يكون بين قدمي مساء السبت» .

«أين» ؟.. تساءلت بانفورد وقد أتسعت عيناها دهشة من خلف النظارة .

«عندما كنت أقف خلف البركة» .

«وهل أطلقت النار عليه؟» تساءلت بانفورد بشيء من الحماسة

«كلا لم أفعل ذلك» .

«لماذا»؟

«بسبب ما اصابني من دهشة ، علىٰ ما أتصور» .

كانت مارتش تجيب بطريقتها البطيئة المقتضبة كعهدها دائماً .

حدقت بانفورد الىٰ صديقتها بضع ثوانٍ ثم تساءلت بشيء من التعجب :

«هل شاهدت الثعلب حقاً؟»

«نعم» ، أجابت مارتش ، «وقد رمقني بنظرة لم يبد فيها الخوف والتردد» .

استطردت بانفورد قائلة : «ياللوقاحة ! أؤكد لك يانيلي أن هذه الثعالب لا تخشانا بتاتاً» .

«كلا ، انها لا تخشانا» . اجابت مارتش .

«انه لأمر مؤسف حقاً» ، قالت بانفورد «أعني أن لم تحاولي قتله»

أجابت مارتش «نعم ، انه لأمر مؤسف حقاً ، واني جادة في البحث عنه منذ ذلك الحين ، ولكني لا أظنه سيجرؤ علىٰ الوصول ثانية الى هذا الحد القريب» .

قالت بانفورد «لا أعتقد ذلك» .

ومضت في نسيان الامر كله ، إلا انها كانت أشد سخطاً من اي وقت مضىٰ علىٰ وقاحة هذا المتطفل الجريء . إلّا أن مارتش لم تكن تدرك تماماً مدىٰ انشغالها بهذا الثعلب . كان خياله يراودها عندما تستسلم لتأملاتها ويسيطر علىٰ وعيها الداخلي عندما تنطلق سارحة بين اليقظة والتأمل في ما كان يمر أمام عينيها . وهكذا استمرت الحال أسابيع بل شهور . كان سحره يراودها حيثما كانت ومهما عملت . كانت صورته ماثلة أمامها وهي منهمكة في جمع التفاح والخوخ من الاشجار ، أو عندما كانت تنظف الحظيرة ، أو تعمل علىٰ تعميق الخندق حول بركة البط ، وعندما تنتهي من العمل وتعدل قامتها فترفع بخصلات شعرها لتزيحها عن جبينها وقد أنكمش فمها علىٰ نحو من هم أكبر منها سناً . كان سحره يداهمها كما داهمها عندما حدّق اليها أول مرة ... بدت كأنها تستطيع شم رائحته في تلك الأوقات . ففي لحظات غير متوقعة ، وفي وقت ذهابها للنوم ليلاً ، أو في لحظة صبها الماء في الابريق لاعداد الشاي ، كان الثعلب يأتيها فيهبط عليها مثل السحر .

وهكذا مضت الشهور . كانت تبحث عنه باستمرار من غير وعي كلما اتجهت صوب الغابة . كان قد تحول الى مؤثر مقيم في نفسها ، لا بل أصبح حالة دائمة : غير مستمرة ولكنها تتكرر دائماً . ولم تكن

مارتش تدرك ما تشعر به أو ما كان يجول في رأسها من أفكار ، فالحالة كانت تنتابها حسب كما حدث عندما نظر الثعلب اليها أول مرّة . مضت الشهور . وتعاقبت الأمسيات القاتمة ... أمسيات شهر تشرين الثاني المعتمة الثقيلة ، عندما كانت مارتش تخرج بجزمتيها العاليتين وهي تخوض في الطين حتى كاحليها . وعندما كان الليل يخيم في الرابعة بعد الظهر وعندما يبدو النهار كأنه لن يطلّ فجره ابداً . كانت الفتاتان تكرهان هذه الاوقات وترهبانها . كانتا تخشيان الظلمة التي كانت تخيم عليهما وهما قابعتان في مزرعتهما المقفرة قرب الغابة . كانت بانفورد تشعر بخوف جسماني ... كانت تخشى المتسكعين والمتشردين ممن يجوسون خلسة . أما مارتش فلم تكن تشعر بالخوف قدر شعورها بالضيق . كان الوجوم وعدم الراحة يدبان في بنيتها .

أعتادت الفتاتان تناول الشاي في حجرة الجلوس حيث كانت مارتش تقوم بإشعال الموقد عند الغسق لتضع فيه ما قطعته ونشرته من قطع الخشب في اثناء النهار . وبعد تناول الشاي كان عليهما تحمل عبء الأمسيات الطويلة ، أمسيات قاتمة رطبة سود خارج البيت ، وحيدة وخانقة الى حد ما في داخله وفيها شيء من الكآبة . كانت مارتش قانعة بالصمت والتأمل ، اما بانفورد فكانت تجد نفسها عاجزة عن البقاء ساكنة ، فالاصغاء لصوت قطرات الماء المتساقطة وزمجرة الريح وهي تعصف بأشجار الصنوبر وحده كان أمراً صعباً عليها احتماله .

في ذات مساء كانت الفتاتان قد انتهيتا من غسل أواني الشاي في

المطبخ . وكانت مارتش قد جلست منتعلة حذاءها المنزلي ، وقد انهمكت بعمل الكروتشيه (الحيأكة بالسنارة) الذي أعتادت العمل فيه ببطء بين وقت وآخر . لذا فقد خلدت الىٰ الصمت . أما بانفورد فقد انشغلت بالنظر الىٰ النار الحمراء التي كانت تستعر في الموقد والتي كانت تتطلب مراقبة مستمرة بسبب وقودها الخشبي . كانت تخشىٰ البدء بالمطالعة في وقت مبكر تفادياً لما قد يسببه ذلك من ارهاق لعينيها . ولذلك جلست تحدق الىٰ النار وهي تنصت الىٰ الاصوات التي كانت تنحدر اليها من بعيد : أصوات الماشية في زرائبها ، وصوت الريح الكئيبة المثقلة بالرطوبة ، وصوت ما تحدثه قاطرات السكك الحديد من قرقعة وجلبة وهي تسير علىٰ قضبانها . كادت بانفورد تكون مفتونة بوهج النار الحمراء المتصاعدة من الموقد .

وعلىٰ حين غرة جفلت الفتاتان ورفعتا رأسيهما . فقد سمعتا صوت خطوات .. خطوات واضحة . أنتصبت مارتش منصتة ، واقتربت بسرعة من الباب المؤدي الىٰ المطبخ ، وسرعان ما أدركتا أن الخطوات كانت تقترب من الباب الخلفي للمنزل . أنتظرت الفتاتان لحظة . انفتحت الباب الخلفية برفق . أطلقت بانفورد صرخة عالية ، ثم جاء صوت رجل يقول برقة :

«هلو ! »

اردفت مارتش ، والتقطت بندقية من احدىٰ زوايا الغرفة «ماذا تريد؟» ، صاحت مارتش بصوت حاد .

مرة اخرىٰ أنساب هذا الصوت الرجالي اللطيف بذبذباته الناعمة ليقول :

«هلو ! ما الخطب؟»

صاحت مارتش قائلة : «سوف اطلق عليك النار ! ماذا تريد؟»

«لماذا ؟ ماالامر ؟ ماالامر ؟» جاء الصوت الرقيق ، المتعجب الذي لم تخل نبراته من بعض الخوف ، ثم تقدم تحت الضوء الخافت : جندي شاب يحمل عدته العسكرية الثقيلة علىٰ ظهره ليقول : «حقاً ، من يسكن هذا المنزل ياترىٰ ؟» .

أجابت مارتش «نحن نسكن هنا . فماذا تريد ؟»

أجاب الجندي بنبرة ذات نغم لم تخلُ من تعجب :

«ألا يسكن هذه الدار السيد وليم جرنفيل إذاً ؟»

«كلا ! وأنت تعلم ذلك جيداً» أجابت مارتش .

تساءل الجندي قائلاً : «هل أعلم ذلك حقاً ؟ كلا لا أعلمه . وارجو ان يكون هذا واضحاً ... كان يسكن هذه الدار حقاً ، وكان جدي . وقد سكنت معه شخصياً هذه الدار قبل خمسة اعوام . ماذا حل به ياترىٰ ؟»

تقدم الشاب ، أو الاحرىٰ الفتىٰ اذ انه لم يبد عليه اكثر من عشرين عاماً ، تقدم ليقف علىٰ عتبة الباب الداخلي . كانت مارتش ماتزال تحت تأثير نبرات صوته الغريبة الهادئة المتموجة العذبة ، وقد بدت مسحورة وهي تحدق اليه . كان وجهه مستديراً مشرباً بالحمرة ، وكان شعره طويلاً مائلاً الىٰ الشقرة قد تسطّح عند جبهته بسبب حبات العرق التي تصببت منه . كانت عيناه زرقاوان تشعان بريقاً وحدّة ، وقد تناثرت علىٰ بشرة خديه الفتية المتوردة بعض الشعرات الشقراء التي بدت كزغب الا انها أكثر حدة ، مما أضفىٰ

عليه مظهراً متلألئاً . وبسبب ثقل عدتهِ التي حملها علىٰ ظهره ، وقف منحنياً وهو يرفع رأسه الىٰ الامام . كانت يده تمسك بقبعته بارتخاء . حدق بذكاء واهتمام وهو ينتقل بنظراته من مارتش الىٰ بانفورد ، وبخاصة مارتش التي وقفت شاحبة بعينين متسعتين كبيرتين ، وهي تلبس معطفها المزنر ولفافتي ساقيها وقد عقدت خصلات شعرها وارسلتها خلف ظهرها . كانت البندقية ماتزال في يدها ، وخلفها بانفورد وقد امسكت بيد المقعد وهي تزداد انكماشاً ، وقد أشاحت بنصف وجهها .

قال الفتىٰ : «ظننت ان جدي مايزال يسكن هذه الدار ؟ اتراه قد مات ؟»

أجابت بانفورد وقد بدأت تتمالك نفسها بعد ان تفحصت مظهر الفتىٰ الصبياني برأسه المستدير وشعره الطويل الذي بلله العرق : «لقد مضىٰ علىٰ وجودنا هنا ثلاث سنوات» .

«ثلاث سنوات !» أردف الفتىٰ ، ثم استطرد قائلاً ، «أليس ذلك غريباً ؟ لا أظنكما تعلمان من كان يسكن هذه الدار قبلكما ؟»

أجابت بانفورد : «كان يسكنها رجل مسن عاش فيها وحده هذا ما اعلمه !»

قال الفتىٰ : «نعم انه هو نفسه . ياترىٰ ماذا حل به ؟»

«لقد توفي . أعلم انه قد توفي» . اجابت بانفورد .

كان الفتىٰ يطيل النظر الىٰ الفتاتين دون ان يحدث ذلك أي تغيير في ملامحه أو في أسلوبه في التعبير عن مشاعره . الىٰ جانب مابدا عليه من امارات التعجب ، دل ما عكسه من مشاعر علىٰ شدة فضوله

بشأن الفتاتين . أجل : كان فضوله حاداً مجرداً من أي شعور شخصي - فضول ذلك الرأس المستدير الفتي .

كان الفتىٰ في نظر مارتش هو الثعلب نفسه ولم يكن بوسعها تحديد اذا كان ذلك بسبب بروز رأسه الىٰ الامام وهو يقف أمامها ، أو بسبب ما عكسته الشعيرات التي برزت فوق عظمي وجنتيه من تلألؤ ، أو بسبب بريق عينيه الحادتين . إلا انه بدا لها كأنه الثعلب نفسه وقد عجزت عن ان ترىٰ خلاف ذلك .

ثم تساءلت بانفورد قائلة بعد ان استعادت حدة ذهنها المعهودة : «كيف تعلل جهلك بموت جدك أو بقائه علىٰ قيد الحياة ؟» .

أجاب وهو يتنفس بهدوء تام : «هذا هو الواقع . أني أجهل ما حل به ، فقد التحقت بسلك الجندية في كندا وقد انقطعت عني إثر ذلك اخبار جدي فترة ثلاث سنوات أو اربع . كنت قد هربت الىٰ كندا» .

سألت : «هل عدت توّاً من فرنسا اذن ؟»

«بل ، حقا ، من سالونيك» .

اعقبت هذه المحاورة فترة صمت لم يعلم أي منهم خلالها ما كان عساه ان يقول . ثم تساءلت بانفورد بشيء من الحرج : «انت اذاً بلا مأوىٰ ؟»

أجاب الفتىٰ بعد تردد قليل : «أوه ! لي بعض المعارف في القرية . وعلىٰ كل حال يمكنني الذهاب الىٰ نزل (البجعة)» .

«لقد قدمت بالقطار علىٰ ما افترض . هل ترغب في ان تجلس معنا بعض الوقت ؟»

«حسناً . لا أجد مانعاً» .

وعندما ازاح عدته الثقيلة عن كتفيه نبَّ عنه أنين قصير ، لم يخل من غرابة . نظرت بانفورد الىٰ رفيقتها مارتش وقالت ـ «ضعي البندقية جانباً ولنعد الشاي» .

«اجل» ، قال الفتىٰ . «لقد كفانا ما شاهدناه من بنادق»

جلس علىٰ المقعد متعباً الىٰ حد ما وقد مال بجسمه الىٰ الامام . واستعادت مارتش وعيها وذهبت الىٰ المطبخ . ومن هناك سمعت الجندي يتأمل بصوت هادىء فتي قائلاً :

«لم أتصور أني سأعود لأجد الدار علىٰ مثل هذه الحال» .

لم ينم هذا التساؤل عن حزن أو ألم علىٰ الاطلاق انما نم عن تعجب لم يخل من اهتمام . ثم استطرد قائلاً وهو يجول بنظره في اركان الغرفة :

«ياله من فرق كبير !»

«اتراك تلاحظ وجود فرق ؟»

«بلا شك» .

كان في عينيه بريق وصفاء لم يخلوا من غرابة وإن دلّ بريقهما علىٰ صحته الموفورة .

أنهمكت مارتش بإعداد وجبة طعام أخرىٰ في المطبخ ، وكان الوقت قد قارب السابعة مساء . لم تكن في اثناء قيامها بواجب الضيافة تصغي لما قاله الفتىٰ بقدر ما كانت تتحسس نبرات صوته الهادئة . وفي محاولة منها لفرض وجودها الىٰ أبعد حد ممكن فقد زمت فمها بشدة حتىٰ بدا كأنه قد سُمِّرَ علىٰ هذه الشاكلة . ومع ذلك

ازدادت عيناها اتساعاً وتوهجاً علىٰ الرغم منها ، ثم سرعان ما غضبت . أعدت وجبة طعام بشيء من السرعة وعدم الاهتمام ، إذ قطعت اجزاء كبيرة من الخبز والزبد النباتي ، إذ أن الزبد الحيواني لم يكن موفّراً . حثت فكرها بحثاً عن صنف آخر تضيفه الىٰ ما وضعته في الصينية ـ لم يكن لديها سوىٰ الخبز والزبد النباتي والمربى ـ كانت خزانة الاطعمة خالية . وعندما اخفقت في اضافة أي شيء آخر حملت الصينية ودخلت حجرة الجلوس .

لم تكن ترغب في أن تكون موضع أهتمام ... وقبل كل شيء لم تكن ترغب في أن ينظر اليها الفتىٰ . ولكنها عندما دخلت الحجرة وانشغلت بإعداد المائدة التي كانت خلف موقع جلوسه ، أعتدل في جلسته والتفت لينظر خلفه ، فبهتت وامتقع لونها .

راقب الفتى مارتش وهي تنحني فوق المائدة . نظر الىٰ ساقيها النحيفتين المتناسقتين والىٰ معطفها المزنّر الذي تهاوىٰ حول فخذيها والىٰ عقدة شعرها الداكن ليجد أنها أستحوذت ثانية علىٰ فضوله الذي تميز بحدّته وشدة قوته .

كان النور ينبعث الىٰ الاسفل بفعل اللون الاخضر الداكن لمظلة المصباح مما جعل القسم العلوي من الغرفة معتماً . وقد بدا وجه الفتى وضّاءً تحت النور المنبعث . أما مارتش فلم تبدُ واضحة الملامح عن بعد .

استدارت مارتش ولكنها واصلت النظر باتجاه جانبي وهي ترفع وتنزل اهدابها الداكنة . وبقي فمها مزموماً عندما خاطبت بانفورد قائلة :

«هل لك أن تصبي الشاي ؟» ثم ذهبت الى المطبخ ثانية

خاطبت بانفورد الفتى قائلة . «يمكنك تناول الشاي حيث تجلس ، اللهم إلاّ أذا شئت الجلوس على المائدة» .

أجاب : «أفضل البقاء في مكاني ان لم يكن هناك ثمة مانع لديك ، لأني أشعر بالراحة وأنا أجلس في مكاني هذا» .

قالت : «لا يوجد سوى الخبز والمربى» ، ثم وضعت صحنه على مقعد واطيء الى جانبه . كانت تشعر بغبطة وهي تقوم على خدمته لانها كانت تحب الرفقة ، ولانها لم تعد تخافه ، بل أصبحت مطمئنة اليه اطمئنانها الى اخيها الاصغر . ياله من فتى !

«نيلي» . قالت بانفورد وهي تخاطب رفيقتها مارتش «لقد صببت لك الشاي» .

ظهرت مارتش في مدخل حجرة الجلوس ثم تناولت قدح الشاي وجلست بعد ان اختارت لنفسها أبعد زاوية عن الضوء . وكانت شديدة الحساسية من ركبتيها ، وقد وجدت نفسها تعاني بسبب عجز تنورتها عن تغطيتهما وبسبب اضطرارها الى الجلوس وهما مكشوفتان على نحو فاضح . ثم انكمشت تدريجياً وهي تحاول تجنب الانظار . اخذ الفتى ـ الذي تراخى بجلسته على المقعد ـ يرسل اليها نظرات طويلة ثابتة وثاقبة حتى كادت تكون مستعدة للتواري عن الانظار . مع ذلك حملت فنجان الشاي بتوازن تام ، وشربت شايها ثم زمت شفتيها وحملت رأسها متجنبة نظراته ، وقد وجد الفتى نفسه حائراً ازاء ما ابدته من رغبة ملحة في التستر . شعر بأنه عاجز عن رؤيتها بوضوح ، فقد بدت كأنها ظل داخل الظل .

ولكن عينيه الثاقبتين لم تكفّا عن العودة اليها لاحراجها بنظرات فاحصة لا هوادة فيها ، وبتركيز ثابت كاد يكون لا شعورياً .

في الحين ذاته كان الفتىٰ يتجاذب اطراف الحديث برقة وهدوء مع بانفورد التي لم تكن تهوىٰ شيئاً اكثر من القيل والقال . والتي كانت أشبه بالطير لما كان يتملكها من اهتمام مفعم بالحيوية . وكان يلتهم طعامه بنهم وبسرعة مما اضطر مارتش الىٰ اعداد المزيد من قطع الخبز والسمن النباتي التي كانت اشكالها غير المتناسقة مدعاة لقيام بانفورد بالاعتذار .

أنبرت مارتش تقول علىٰ نحو مفاجىء : «ما جدوىٰ إعداد قطع الخبز المتناسقة اذا لم تتوافر الزبدة» .

راقبها الفتىٰ مجدداً ثم اطلق ضحكة مفاجئة وسريعة بانت في اثنائها أسنانه وتجعد علىٰ أثرها أنفه ثم قال معلقاً بصوته الهادىء ، الدافىء : «ما جدوىٰ ذلك حقاً ... » .

كان الفتىٰ كما تبيّن ، كورنوالي[1] المولد والنشأة وقد جاء مع جده الىٰ مزرعة (بيلي) عندما كان في الثانية عشرة من عمره .. وبسبب عدم انسجامه مع جده العجوز ، وجد الحفيد نفسه مضطراً الىٰ الهرب الىٰ كندا والعمل في مكان ناءٍ من الغرب ، وها هو قد عاد ثانية وهذه هي خاتمة الأمر .

تملكه الفضول بشأن هاتين الفتاتين فأراد معرفة ما كانتا تعملاه تماماً . وكانت اسئلته هي ما يطرحه دائماً فتيان المزارع وتجمع بين

---

(١) كورنوالي : نسبة الى كورنوال احدىٰ المقاطعات البريطانية التي تقع في جنوب غربي انجلترا ـ المترجم .

www.library4arab.com/vb

الذكاء والواقعية وشيء من السخرية . وقد وجد في موقفهما ازاء ما تكبدتاه من خسارة أمراً لم يخل من تسلية ومرح وقد أضحكه ما روتاه عن تجاربهما مع البهائم والطيور .

قالت مارتش : «مهما كان الامر ، فاننا لا نؤمن بالعيش من أجل العمل فقط» .

«أحقاً ذلك ؟» تساءل الفتىٰ الذي سرعان ما علت قسمات وجهه ضحكة صبيانية . وركز نظراته بثبات علىٰ تلك المرأة الغامضة التي قبعت في الزاوية .

وتساءل قائلاً:«ولكن ماعساكما أن تعملا بعد ان تأتيا علىٰ ما تبقىٰ من رأس المال ؟»

اجابت مارتش بشيء من الاقتضاب : «لست متأكدة من ذلك لربما نلجأ الىٰ العمل فلاحتين ؟»

«لربما» قال الفتىٰ ، «ولكن سوف تنتفي الحاجة للنساء العاملات اذ ان الحرب قد انتهت الآن» .

«اوه ! سنرىٰ كيف تسير الامور . سنصمد مدّة اطول» .

أجابت مارتش بعدم اكتراث كئيب جمع بين الحزن والسخرية قال الفتىٰ بهدوء : «ان الموقف يتطلب وجود رجل» ، انفجرت بانفورد ضاحكة .

«احذر ما تقول» ، قالت وهي تقطع سير الحديث «اننا نرىٰ انفسنا كفوئتين غاية الكفاءة ثم انساب صوت مارتش ببطء تشوبه الكآبة : «أوه ! أخشىٰ انها ليست مسألة كفاءة . فاذا أردت العمل في مجال الزراعة عليك ان تعمل من الصباح الباكر حتىٰ الليل ، فمن الاجدر بك ان تكون انت البهيمة» «أجل! . هذا هو المطلوب» ، اردف

الفتىٰ قائلاً ، «ولكنكما غير راغبتين في زج نفسيكما بالعمل» .
أجابت مارتش قائلة : «هذا صحيح ونحن ندرك ذلك» .
واصلت بانفورد ، «نريد بعض الوقت لنا» .

رمىٰ الفتىٰ نفسه علىٰ المقعد وقد توترت قسمات وجهه بضحكة مكبوتة . وضحك بصمت وبعمق ، فاستهانة الفتاتين الهادئة ملأته بدغدغة لا حدود لها .

ثم تساءل قائلاً . «لماذا اذاً بدأتما العمل ؟»

أجابت مارتش «كان رأينا في طبيعة الطيور أفضل من رأينا فيها الآن» . «لا بل في الطبيعة مجتمعة» ، قالت بانفورد «لا تكلمني عن (الطبيعة) !» ومرة اخرىٰ تورد وجه الفتىٰ بضحكة جذلىٰ . قال : «انتما اذاً لا تحملان فكرة طيبة عن المواشي والطيور أليس كذلك» ؟ «كلا». اجابت مارتش ، «بل نحمل نظرة دنيا» .

ضحك الفتىٰ .

أردفت بانفورد : «ولا يقتصر الامر علىٰ المواشي والطيور حسب ، بل المعَزْ ايضاً ، لا بل حتىٰ الطقس . وهنا انفجر الفتىٰ يضحك بصوت مدوي وقد بدا في غاية الابتهاج . وبدأت الفتاتان بالضحك كذلك . أدارت مارتش رأسها وقد تجعد فمها بهجةً ، ثم قالت بانفورد : «في الواقع نحن لا نأبه للأمر ابداً ، ألسنا كذلك يانيلي ؟» «أجل نحن حقاً كذلك» ، اجابت مارتش .

كان الفتىٰ في غاية الارتياح بعد ان أكل وشرب كفايته . وهنا بدأت بانفورد باستجوابه . كان اسمه (هنري جرنفيل) . كلا لم يكن ابداً يدعىٰ (هاري) ، بل (هنري) دائماً . وكان يجيب عن أسئلة بانفورد

ببساطة جمعت بين الأدب والجدية والرقة . أما مارتش التي لم تشترك في الحديث فقد أخذت ترمقه بنظرات طويلة وفاحصة ، من موقعها المنعزل ، وقد جلس علىٰ المقعد مشبكاً يديه حول ركبته . أما وجهه الذي أنصرف باتجاه بانفورد فقد بدا مشرقاً يقظاً تحت نور المصباح . واخيراً تمكنت من أستعادة هدوئها الىٰ حد ما . كان متمثلاً في الثعلب . وكان هنا بحضور تام فلا حاجة بها بعد ذلك الىٰ ان تسعىٰ الىٰ التفتيش عنه . وفي ظل زاويتها هناك ، استسلمت الىٰ هدأة جمعت بين الدفء والاسترخاء كادت أن تكون أشبه بالنوم ، وارتضت لنفسها ذلك السحر الذي استحوذ علىٰ جوارحها . ولكنها رغبت في البقاء متخفية . ما كانت تشعر بالطمأنينة التامة إلّا عندما يكون منشغلاً عنها بتجاذب اطراف الحديث مع بانفورد . وهي متخفية في ظل الزاوية . لم يعد هناك أي سبب للانقسام في ذاتها وهي تحاول الحفاظ علىٰ مستويين مختلفين للوعي . وأخيراً تمكنت من العودة الىٰ رائحة الثعلب .

ولأن الفتىٰ ـ الذي كان يجلس ببزته العسكرية امام الموقد ـ بعث في ارجاء الغرفة رائحة ضعيفة لكنها متميزة ـ رائحة لا يمكن تحديدها تماماً ولكنها كانت أشبه شيء برائحة مخلوق بري . لم تعد مارتش تحاول التحفظ من هذه الرائحة ، فقد قبعت في زاويتها باسترخاء وهدوء كمخلوق ارتضىٰ ان يقبع في كهفه باذعان ، واخيراً تضاءل حجم الحديث ، وأرخى الفتى قبضتيه اللتين كانتا تشدان علىٰ ركبتيه ، ثم اعتدل في جلستهِ قليلاً وأخذ يجول بنظره في أرجاء

www.library4arab.com/vb

الغرفة . وهكذا إنتبه ثانية لوجود المرأة الصامتة . نصف المخفية في الزاوية .

«حسناً !» قال الفتىٰ بنبرة نمت عن عدم رغبة ، «اعتقد أن من الافضل ان انصرف وإلا فأني سأجد أصحاب نزل (البجعة) قد أخلدوا الىٰ النوم» .

قالت بانفورد : «أخشىٰ ان يكونوا في كل الاحوال قد أووا الىٰ الفراش الآن ، فقد اصيبوا جميعاً بالانفلونزا !» .

«أحقا ذلك ؟» قال الفتىٰ متعجباً . ثم أستأنف حديثه بعد ان تروّىٰ قليلاً :«مع ذلك لابد أن أجد مأوىٰ في مكان ما» .

قالت بانفورد : «ارىٰ ان بمستطاعك المبيت هنا ، ولكن ...» .

التفت الفتىٰ وراقب بانفورد وقد رفع رأسه الىٰ الأمام ثم تساءل قائلاً : «ولكن ماذا ؟»

أجابت بانفورد بشيء من الارتباك : «أقصد هل يعد الامر منافياً للاصول والتقاليد ؟»

قال بتعجب هادىء : «ما أظنه يخرج عن حدود اللياقة . أليس كذلك ؟»

أجابت بانفورد : «ليس بالنسبة الينا» .

«وكذلك الحال بالنسبة اليَّ شخصياً، اذ علىٰ الرغم من كل شيء فان هذه الدار هي منزلي علىٰ نحو ما» . قال ذلك بسذاجة جادة.

ابتسمت بانفورد لهذه العبارة ثم استطردت قائلة :

«ان الأمر يتعلق بما سيدور في القرية من كلام بهذا الشأن ؟»

وكان هناك لحظة توقف فارغة .

تساءلت بانفورد قائلة : «ما قولك يانيلي ؟»

أجابت مارتش بنبرتها الواضحة : «لا مانع لدي ولا يهمني أمر القرية وما يدور فيها بأية حال من الاحوال» .

وقال الفتىٰ بسرعة وهدوء : «تماماً ! لماذا يهمكما أمر القرية ؟ أعني ما عسىٰ ان يقول أهلها ؟» «اوه ! سيجدون ما يقولونه بسهولة تامة ولكنه لن يغير شيئاً بتاتاً ، اذ بامكاننا العناية بنفسينا» .

قالت مارتش بنبرة كئيبة مقتضبة .

قال الفتىٰ مؤكداً : «يمكنكما ذلك تماماً» .

قالت بانفورد : «ان كان الامر كذلك يمكنك المبيت اذا شئت ، فالحجرة الاضافية جاهزة» .

شع وجه الفتىٰ رضىٰ وفرحاً ثم انبرىٰ يقول بلهجته المهذبة التي تميز بها : سأقبل الدعوة شاكراً أن كنتما علىٰ ثقة بأن الامر لا يسبب لكما اي أزعاج قط» .

«لا ليس ثمة ازعاج ابداً» أجابت الفتاتان في آن واحد انتقل بنظره من بانفورد الىٰ مارتش وهو يبتسم بسرور ظاهر . ثم قال بنبرة نمّت عن امتنانه : «انه حقاً لشيء جيد جداً أن لا أضطر الىٰ الخروج ثانية ، أليس كذلك ؟»

«أجل» ، أجابت بانفورد ، «وهو كذلك علىٰ ما أفترض» .

اختفت مارتش للاعتناء بالغرفة . أما بانفورد فكانت فرحة ومهتمة كأنها تستقبل أخاها الاصغر العائد من فرنسا ، إذ إنتابها شعور الارتياح والرضىٰ نفسه وهي تسهر علىٰ راحته وتعد له الحمام وترعىٰ شؤونه ـ فقد وجد دفْؤُها وحنانها الطبيعيّان متنفساً لهما .

ووجد الفتىٰ نفسه ينعم في بحر الحنان الاخوي وما صاحبه من رعاية واهتمام ، إلّا انه إحتار بعض الشيء عندما أدرك أن مارتش كانت تعمل بصمت من أجله ايضاً . فقد كانت صامتة ومتحفظة بشكل غريب جداً يصعب فهمه . وقد بدا له أنه لم يكن في الحقيقة قد شاهدها ، وشعر بانه كان ينبغي له التعرف اليها اذا ما قدر له الالتقاء بها في الطريق .

في تلك الليلة راود مارتش حلم خصب ، شديد الوضوح . رأت نفسها تسمع غناء من خارج البيت لم تفهم له معنىٰ ، غناء كان يطوف حول الدار وفي الحقول وفي الظلمة . وقد هزها بحيث جعلها تشعر برغبة ملحة في البكاء .

وما أن خرجت حتىٰ أدركت فجأة أن من يغني كان الثعلب وكان ونه أصفر براقاً كلون القمح . أقتربت منه ولكنه توقف عن الغناء وولىٰ هارباً . بدا قريباً وأرادت لمسه . مدت يدها ولكنه هجم فجأة وعضّ رسغها . وفي تلك اللحظة تماماً ، عندما تراجعت الىٰ الخلف ، حرك الثعلب ذيله ليولي الأدبار ماسحاً بذيله وجهها فبدا كأن ذيله هذا قد أشتعل ناراً لأنه لفح وجهها بلهيبه وأصاب فمها بحروق مؤلمة جداً . ثم استفاقت بفعل ألم هذه الحروق وبقيت مستلقية وهي ترتجف ، كما لو كانت النار قد لفحتها فعلاً .

في الصباح لم يبق من الحلم سوىٰ ذكرىٰ بعيدة حسب . فقد نهضت مارتش وانشغلت بأعمال المنزل ورعاية الدواجن . كما انطلقت بانفورد علىٰ دراجتها مسرعة الىٰ القرية محاولة شراء بعض

www.library4arab.com/vb

الطعام . لقد كانت كريمة مضيافة . ولكن في عام ١٩١٨ لم يكن الطعام ، للأسف ، متوافراً .

نزل الفتىٰ من حجرته الىٰ الطابق الارضي مكتفياً بلبس سرواله وقميصه ، فلم يرتد السترة . كان فتياً ويافعاً جداً ولكنه كان يسير ورأسه مدفوع الىٰ الامام فيبدو مما يظهر علىٰ منكبيه من ارتفاع وتكوّر من جراء ذلك كمن له تقوس يسير في عموده الفقري . وتلك لابد ان تكون طريقته الخاصة بالسير ، فقد كان شاباً نشيطاً وقوياً . بعد ان أغتسل خرج من الدار وفي وقت كانت الفتاتان فيه منهمكتين بإعداد وجبة الافطار .

شاهد كل شيء . وتفحص كل شيء . كان فضوله حاداً لا يمكن اشباعه . وقد عمد الىٰ مقارنة أوضاع المزرعة مع ما علق في ذهنه من حالها سابقاً ، وتمكن أن يقدر نتائج التغيرات التي حصلت .... راقب الدجاج والبط ليكون علىٰ بيّنة من احوالها . ولم تفته ملاحظة هجرة الحمام وهو يمر في سماء المزرعة بأسرابه العديدة . واستطاع ان يرىٰ ما بقي من تفاحات وهي تتدلىٰ من أعالي شجيراتها ، تلك التفاحات التي لم تتمكن مارتش من الوصول اليها وقطفها . ولاحظ أن الفتاتين قد استعارتا مضخة سحب للقيام ، علىٰ ما يبدو ، بإفراغ محتوىٰ خزان الماء الموجود في الجهة الشمالية من الدار .

قال الفتىٰ عندما جلس مع الفتاتين لتناول طعام الافطار : «انها حقاً لمزرعة قديمة ، حلّ فيها الخراب حتىٰ أوشكت علىٰ التداعي» .

كان في عينيه الذكاء والطفولة والقابلية علىٰ التفكير في الامور . لم يتكلم كثيراً ولكنه أكل بكثرة . واستمرت مارتش في تفادي النظر

اليه ، اذ لم يكن بمستطاعها هي الاخرىٰ الشعور بوجوده في تلك الساعة المبكرة من الصباح ، وان وجدت في بريق بزته الخاكية ما أعاد الىٰ ذهنها لمعان ثعلب أحلامها .

انشغلت الفتاتان بأعمالهما في اثناء النهار . وتولىٰ هو في الصباح العناية بالبنادق ، واصطاد أرنباً وبطة برية كانت تطير عالياً باتجاه الغابة . فعزز هذا الصيد خزانة الطعام التي كانت خالية . وازاء هذا الانجاز شعرت الفتاتان بانه قد كسب قوته سلفاً .

لم يتطرق الفتىٰ الىٰ موضوع مغادرته المزرعة . ذهب الىٰ القرية بعد الظهر . وعاد وقت تناول الشاي . لاحت علىٰ قسمات وجهه المستدير تلك النظرة ذاتها ، النظرة اليقظة والبعيدة المدىٰ . خلع قبعته وعلقها علىٰ المشجب بحركة مترنحة ، لقد كان يفكر في أمر ما .

وما ان جلس علىٰ المائدة حتىٰ خاطب الفتاتين قائلاً :

«حسناً ! ما عساي ان افعل» ؟

قالت بانفورد : «ماذا تعني بقولك ما عساك ان تفعل ؟ »

أجاب «أعني أينَ سأجد مكاناً لاقامتي في القرية ؟»

ردت بانفورد قائلة : «لا علم لي . أين تريد الاقامة ؟»

قال بشيء من التردد : «لقد أبتلىٰ نزل (البجعة) بالانفلونزا ، أما نزل (المحراث والجرافة) فقد امتلأ بالجنود الذين أتوا لجمع العلف لدواب الجيش ، ولا مجال للاقامة في البيوت الخاصة ، فقد أقام نائب عريف وعدد من جنوده فيها علىٰ ما علمت ، وانا لست واثقاً اين يمكنني الحصول علىٰ مبيت» .

ترك الفتىٰ أمر اقامته للفتاتين . كان هادئاً الىٰ حد ما ازاء هذا

الأمر ، وكانت مارتش تنظر اليه بلا وعي وقد جلست وهي تضع حنكها بين راحتيها وقد ارتكز مرفقاها على المائدة .

وعلى حين غرة رفع عينيه الزرقاوين الملبدتين بالغيوم ونظر مباشرة دون تفكير الى عيني مارتش . جفل كما جفلت ، وتراجع قليلاً أيضاً . وحين أدار وجهه جانباً لمست مارتش تلك الومضة نفسيها .... الومضة الساخرة الماكرة العالمة وهي تشب من عينيه لتستقر في روحها ، كتلك النظرة التي ترامت من عيني الثعلب الداكنتين . وزمت فمها كما لو كانت تشعر بألم ، بل كما لو كانت نائمة .

«حقا ! اني لا اعلم !» هذا ما كانت تقوله بانفورد . فقد بدا عليها التردد كما لو كانت تخشى امراً يُفرض عليها . ونظرت الى مارتش لتجد في نظرها الواهن ذلك التعبير شبه الذاهل الذي كثيراً ما اعترى قسمات وجه رفيقتها . ثم قالت :

«لماذا لا تتكلمين يانيلي ؟»

غير أن مارتش كانت صامتة وقد اتسعت عيناها ، وكان الفتى يحدق اليها كالمفتون ، دون أن يحرك عينيه .

قالت بانفورد تحث صديقتها على الكلام : «هيا ! أجيبي بشيء ما» .

أدارت مارتش رأسها قليلاً ، كأنها استردت وعيها أو تحاول أن تسترد وعيها . ومضت تتساءل بطريقة تلقائية «وماذا تتوقعين مني أن أقول؟»

«قولي ما بذهنك» اجابت بانفورد .

قالت مارتش : «سيان عندي»

خيم الصمت ثانية . وظهر علىٰ عيني الفتىٰ ثمة ضياء موجه ، نافذاً اليهما كالابرة .

عقبت بانفورد قائلة : «وعندي ايضاً . يمكنك الاقامة هنا ان شئت ذلك» .

اعتلت وجه الفتىٰ ، فجأة وبطريقة لا ارادية ، أبتسامة مثل شعلة صغيرة ماكرة ، وسرعان ما أطرق برأسه محاولاً اخفاءها ... وبقي مطرق الرأس مخفياً وجهه .

ثم أتمت بانفورد الحديث قائلة : «يمكنك الاستمرار في الاقامة هنا ان شئت ذلك فاعمل ما يحلو لك ياهنري !» .

ومع هذا لم يجب بل بقي مطرق الرأس . ثم رفع وجهه الذي توهج بضياء غريب أشبه بالابتهاج ، وقد عكست عيناه صفاء غريباً عندما راح يراقب مارتش ولكنها أشاحت بوجهها عنه وقد ارتسم الألم علىٰ فمها كأنها جريحة ، أو كأن وعيها في غياب .

اعترىٰ بانفورد شييء من الحيرة ازاء هذه النظرات الرقيقة الثابتة التي كان الفتىٰ يحرج بها مارتش ، وتلك الابتسامة الخفية التي كان وجهه يشع بها . لم تكن تعلم كيف كان يبتسم هذا الفتىٰ ، اذ لم تتحرك قسمات وجهه . لم تلح الابتسامة إلّا في وميض الشعرات الناعمة التي أعتلت وجنتيه والتي كادت تتوهج . ثم أنتقل بنظراته الىٰ بانفورد فكانت نظرات مختلفة تماماً .

قال الفتىٰ بصوته المهذب الهادىء «اني علىٰ ثقة بانكما كريمتان

غاية الكرم ، لا بل أكثر كرماً مما توقعت ، ولكنكما من المؤكد لا تريدان ان تنزعجا بسببي .»

قالت بانفورد بشيء من عدم الارتياح : «هل لك بقطع المزيد من الخبز يانيلي ؟» . ثم أضافت مخاطبة الفتىٰ ، «ليس ثمة ازعاج بتاتاً ان شئت الاقامة . سيكون وجودك هنا بمثابة وجود أخي بضعة أيام . فهو فتىً يافع مثلك .

«هذا كرم بالغ منكما» ، ردد الفتىٰ مؤكداً ، ثم استطرد قائلاً : «أود الاقامة هنا من كل قلبي ان كنتما واثقتين بأني لن أكون مصدر ازعاج لكما» .

أجابت بانفورد العطوفة قائلة : «بل على العكس ، اذ ليس ثمة ازعاج من وجودك معنا . ومن دواعي سرورنا أن نجد من يشاركنا العيش في هذه الدار» .

ولكن .. الآنسة مارتش ؟ تساءل الفتىٰ بصوته الرقيق ، وهو ينظر اليها .

قالت مارتش بشيء من الغموض : «لا مانع لدي بقدر تعلق الامر بي» .

توهج وجهه وكاد يفرك يديه فرحاً وبهجة .

قال «حسناً اذاً . انه لمن دواعي سروري أن أُقيم هنا ، ان سمحتما لي بدفع ثمن اقامتي وطعامي ومساعدتكما في العمل» .

قالت بانفورد : «لا داعي لان تذكر موضوع الطعام» .

مر يوم أو يومان والفتى مايزال في المزرعة . كانت بانفورد مفتونة به جداً . كان هادئاً مؤدباً في حديثه . لم يكن راغباً في الاكثار من

الكلام ، بل كان يفضل الانصات لما تقوله بانفورد ليضحك بطريقته السريعة شبه الساخرة . كان سريع الاستجابة للمساعدة في العمل ، إلّا انه لم يسرف في المساعدة . وكان يهوىٰ التجول منفرداً ، وهو يحمل البندقية ، ليراقب وليرىٰ . لم يكن هناك ما يشبع فضوله المجرد ، وكان أكثر حرية وانطلاقاً عندما يجد نفسه وحيداً ، وهو يراقب شبه متخفٍ .

كان يراقب مارتش خاصة ، فقد وجد فيها الغرابة والغموض . أثارته قامتها التي كانت أشبه بقامة رجل رشيق ، وبعثت عيناها الداكنتان في نفسه ، كلما أمعن النظر فيهما ، اثارة جمعت بين الغرابة والبهجة – اثارة يخشىٰ افتضاح أمرها لشدتها وسريتها ، ثم أسلوبها اللاذع ، الغريب في الكلام ، الذي كان يثير فيه الضحك . شعر بأن علية أن يذهب الىٰ حد أبعد ، وبانه مدفوع الىٰ ذلك اندفاعاً حتمياً لا مفر منه . إلّا انه أبعد موضوع مارتش عن باله . وانطلق نحو حافة الغابة وهو يحمل البندقية .

كان الغسق يخيم شيئاً فشيئاً حين عاد الى البيت . وصاحب الغسق زخات ناعمة من مطر آواخر شهر تشرين الثاني . رأىٰ ضوء النار يثب من نافذة غرفة الجلوس ، كان ضوءاً وثاباً وسط مجموعة الابنية الصغيرة التي طواها الظلام في ثناياه ، ثم فكر : حبذا لو أصبح هذا المكان ملكه . وبفطنة واتته فكرة ما : لماذا لا يتزوج مارتش ؟ وقف ساكناً بضع لحظات وسط الحقل – والارنب الميت متدلياً من يده بسكون – انتظر عقله بدهشة بين الامور على ما بدا – وبغرابة أبتسم بينه وبين نفسه مذعناً للفكرة . ما المانع ؟ ما المانع

حقاً ؟ كانت فكرة صائبة ، ما الضرر في كونها فكرة مضحكة .. وما الضرر في كونها أكبر منه سناً ؟ أمر لا ضير فيه . وعندما استعاد في ذاكرته عينيها الداكنتين ، الجافلتين ، السريعتي التأثر أبتسم لنفسه بدهاء . كان هو الاكبر سناً في الواقع ، وكان هو المهيمن عليها .

كاد لا يعترف بنيته حتىٰ لنفسه ، لا بل أنه أحتفظ بهذه النية سراً حتىٰ عن نفسه . فالامر جملةً لم يكن مؤكداً بعد . كان عليه ان يرىٰ كيف تسير الامور ، أجل كان عليه ان يرىٰ كيف تسير الامور . فقد تسخر مارتش من الفكرة بكل بساطة ان لم يكن حذراً . وقد أدرك جيداً ، بما يملكه من مكر ودهاء ، أنه لو ذهب اليها واخبرها ببساطة : «أني احبك ياآنسة مارتش واريدك ان تتزوجيني» فان ردها المحتم سيكون : «أُغْرُبْ عن وجهي ! لا أريد شيئاً من هذه الدعابة الصبيانية» . هكذا كان موقفها من الرجال ومن «دعاباتهم الصبيانية الحمقاء» . واذا أهمل جانب الحذر فقد ترجع عليه لتلسعه بسخريتها التهكمية ، الجارحة ، وتطرده بعد ذلك من المزرعة ومن فكرها الىٰ الابد . كان عليه التحرك علىٰ مهل ، كان عليه أصطيادها كما تصطاد غزالاً أو دجاجة برية عندما تذهب الى الصيد ، فلا جدوىٰ من خروجك الىٰ الغابة لتقول للغزال : «أرجو منك الوقوع صريع رصاص بندقيتي» . كلا ! انها معركة بطيئة وحاذقة . فعندما تذهب حقيقة لاصطياد غزال فإنك تجمع نفسك الى بعضها ، وتلف نفسك داخل نفسك ، ثم تتقدم بسرية الىٰ الجبال قبل طلوع الفجر . إذ ليس المهم ما تفعله عندما تخرج للصيد ، وإنما ما

تشعر به . عليك ان تكون حاذقاً وماكراً ، وأن تكون مستعداً على نحو مهلك جداً ، فيصبح الامر كالمصير . مصيرك انت يتجاوز ويقرر مصير الغزال الذي تصطاده . ففي بادىء الأمر ، وحتىٰ قبل أن تشاهد طريدتك ، هناك معركة غريبة تشبه التنويم المغناطيسي ، فروحك انت ، الصياد ، خرجت لتحكم شد وثاقها حول روح الغزال حتىٰ قبل ان تكون قد شاهدت غزالاً . كما ان روح الغزال تصارع من أجل الفرار حتىٰ قبل ان تصل ريحك الى الغزال ، هو ذا الأمر . فهي معركة إرادة عميقة ، وحاذقة تدور رحاها في الخفاء . وهي معركة لا تنتهي تماماً حتىٰ تستقر الرصاصة في هدفها . وعندما تصل الىٰ الحد الحقيقي ، وتجد نفسك في المدىٰ المطلوب ، فانك حينذاك لا تهدّف كما تفعل عندما تريد أصابة قنينة ، فإرادتك هي التي تنقل الرصاصة الى قلب طريدتك . وما رحلة الرصاصة الىٰ هدفها إلّا محض اسقاط لقدرك انت في قدر الغزال . انها تحدث مثل رغبة عليا ، لا بل مثل فعل ارادي أسمىٰ ، وليس حيلة من حيل الذكاء .

كانت له روحية صياد ، لا روحية مزارع ولا روحية جندي مجبر على البقاء في فوجه . وبهذه الصفة ، أي كونه صياداً شاباً ، فانه أراد ان يسقط مارتش باطلاقة نارية، ، علىٰ انها طريدته ، لكي يجعلها زوجة له . وهكذا جمع نفسه الىٰ بعضها ببراعة ، فبدا كأنه قد انسحب الىٰ حالة من التخفي . لم يكن واثقاً كيف ينبغي له أن يتصرف . كما كانت مارتش مرتابة كالارنب البري ولذا فقد جافلة على مظهر ذلك الشاب الغريب ، اللطيف الذي جاء عَرَضياً وجاء

ليقيم في المكان أسبوعين .

كان قد نشر قطعاً من جذوع الشجر ليوقد بها النار بعد الظهر . خيم الظلام مبكراً . كان السديم مايزال رطباً بارداً ، وكاد اشتداد الظلمة يحجب الرؤية . وقد وضعت كومة من قطع الخشب المنشور الى جانب المسند الخشبي .

جاءت مارتش لتحمل هذه القطع الىٰ الداخل ، أو الىٰ السقيفة ، لانه كان منشغلاً بنشر قطعة الخشب الاخيرة . كان يعمل وقد خلع عنه سترته ، فلم ينتبه لاقترابها . جاءت دون رغبة كمن اعتراه الخجل . شاهدها وهي تحني ظهرها على القطع الخشبية ذات النهايات البراقة ، فتوقف عن النشر ، وسرت في اعصابه ومضة كالنار انحدرت الى ساقيه .

قال بصوته الهادىء الشاب : «مارتش» ؟

رفعت عينيها عن القطع الخشبية التي كانت تجمعها ونظرت الىٰ الاعلىٰ قائلة «نعم»

خفض نظره اليها في الغسق .. لم يستطع أن يراها بوضوح تام .

قال : «أردت أن أطلب منك شيئاً» .

أجابت : "حقاً ؟ وماذا أردت ؟» كان الخوف قد بدا في صوتها . ولكنها كانت مالكة نفسها الىٰ أبعد حد .

«ترىٰ ما عساك تظنين ان يكون الامر ؟» . بدا صوته ينساب بهدوء وبراعة سرعان ما نفذ الىٰ أعصابها . نهضت ، ثم وضعت يديها علىٰ ردفيها . وقفت تنظر اليه ، وقد تسمرت في مكانها دون

جواب . ومرة أخرى اضطرم بلهيب قوة مفاجئة .
قال : «في الواقع أردت أن أطلب منك الزواج» . كان صوته رقيقاً الى درجة بدا كأنه لمسة بارعة مثل لمسة قدم قط في أرق حالاتها ، لا بل بدا احساساً أكثر منه صوتاً .

أحست به مارتش أكثر مما سمعته . كانت تحاول عبثاً أن تدير وجهها جانباً . فقد تملكها ، على ما بدا ، شعور بالراحة . وقفت بصمت وقد مال رأسها قليلاً الى الجانب ، وبدا هو كأنه ينحني صوبها مبتسماً بخفاء . وتبين لها أن شرارات ناعمة قد تطايرت منه .

ثم اندفعت تقول على نحو مفاجيء جداً :
«لا تحاول التأثير فيّ بهذه الدعابات الصبيانية» . اعترته رعشة سرت في أعصابه . لقد أخطأ الهدف . إنتظر برهة ليسترد نفسه ثانية ، ثم قال بعد أن جمع في صوته كل ما أوتي به من رقة غريبة ، كما لو كان يربّت عليها على نحو غير محسوس :
«عجباً ! انها ليست دعابة صبيانية ، انها ليست دعابة صبيانية ، اني أعني ما أقول ، أعني ما أقول . ما الذي يدفعك الى عدم الايمان بيّ ؟»
بدا متألماً . وكان في صوته قوة غريبة مؤثرة جعلتها تشعر بالارتخاء والراحة . ناضلت في مكان ما لتستعيد سيطرتها . وشعرت وهلة بانها قد ضاعت ، ضاعت ، ضاعت ، إذ بدت هذه العبارة تهتز في داخلها كأنها تحتضر . وفجأة تكلمت ثانية .

«انت لا تعلم ما تقول !» قالت ذلك بمسحة سخرية وجيزة عابرة .

«ياله من سخف ! فأنا بسنٍّ تتيح لي أن أكون أما لك»

«أجل اني أدرك ما أقول ، أجل اني أدرك» ، الح برقة كأنه يريد أن يوصل صوته الىٰ دمها:«أني أدرك جيداً ما أقول فلستِ بسن تتيح لك ان تكوني أماً لي . هذا شيىء غير صحيح . وما أهميته حتىٰ لو كان صحيحاً ؟ يمكن ان نتزوج مهما بلغنا من العمر . فما أهمية العمر في نظري وما اهميته في نظرك ؟ لا أهمية للعمر» .

وما أن انتهىٰ من حديثه حتىٰ اعترتها نوبة اغماء ، فقد تكلم بسرعة ، بالطريقة الكورنيشية السريعة ، وبدا صوته يقرع بداخلها في مكان وجدت فيه نفسها عاجزة عن مقاومته فيه . «لا أهمية للعمر» . جعلها هذا الاصرار على ترديد تلك العبارة ، بعمقه وهدوئه ، تترنح بضعف وهي تقف في الظلمة خارج المنزل . لم تستطع الاجابة .

اعترته نشوة كبيرة شبت في أوصاله كالنار ، وشعر بانه قد فاز .

اني أريد الزواج بك كما ترين . ما الذي يمنعني من ذلك ؟ واصل كلامه بسرعة ورقة . انتظر جوابها . رآها في الغسق وقد كادت تتألق ، كانت أهدابها متراخية ووجهها يشيع عنه بعض الشيء من غير وعي . بدت تحت سيطرته ، ولكنه انتظر بترقب ، لم يجرؤ بعد علىٰ لمسها .

«قولي لي اذاً اننا سنتزوج . قولي ذلك ، قولي» كان مُلحّاً برفق .

«ماذا» ؟ تساءلت مترددة ، ومن بعد ، كمن يعاني ألماً كان صوته

قريباً وناعماً علىٰ نحو لا يمكن تصوره . تقدم حتىٰ أصبح قريباً منها .

«قولي نعم»

«لا يمكنني ذلك» . قالت وهي تشكو بضعف وبطريقة تعبير شبه واضحة كأنها غير واعية تماماً وكأنها في حالة ألم ، مثل انسان يحتضر . «كيف يمكنني ذلك» ؟

«بل يمكنك ذلك» ، قالها بنعومة وهو يضع يده برفق علىٰ كتفها ، بينما وقفت مذهولة ورأسها مطرقاً بعيداً عنه .

«يمكنك ذلك . أجل يمكنك . ما الذي يدفعك الىٰ القول انك لا تتمكنين ؟ يمكنك ذلك ، يمكنك ذلك» . وبرقة متناهية انحنىٰ الىٰ الامام ، وكاد أن يلمس عنقها بفمه وذقنه .

«لا تفعل ذلك !» صاحت بصرخة غضب مكبوتة أشبه بنوبة هستيرية ، وهي تثب بعيداً وتستدير نحوه : «ماذا تعني ؟» . ولكنها لم تملك من النفس ما يساعدها علىٰ الكلام . بدا الأمر كما لو كانت قد قتلت .

«عنيت ما قلته» ، أصر بهدوء وقسوة ، «أريدك أن تتزوجيني . أريدكِ أن تتزوجيني . أنت تعرفين هذا . أليس كذلك ؟ أنتِ تعرفين هذا أليس كذلك ؟ أليس كذلك ؟»

تساءلت قائلة : «ماذا ؟» .

أجاب : «تعرفين»

«اجل . أعرف أنك تقول ذلك»

«وانتِ تعرفين جيداً اني أعني ما أقول . أليس كذلك ؟»

«اعلم أنك تقول ذلك».

قال : «هل تصدقينني ؟»

كانت صامتة فترة قصيرة ، ثم زمت شفتيها وقالت :

«لا اعلم ما أصدق»

«هل أنتما في الخارج ؟» جاء صوت بانفورد وهي تنادي من البيت .

أجاب «أجل . اننا نجلب قطع الخشب»

«ظننتكما قد ظللتما الطريق» ، قالت بانفورد بنبرة نمت عن الاكتئاب «أسرعا ، هيا ، وتعالا لكي نتناول الشاي . فالغلّاية تغلي» .

انحنىٰ في الحال ليجمع ملء ذراعيه قطعاً من الخشب وليحملها الىٰ المطبخ حيثما تجمع في زاوية . وأخذت مارتش أيضاً تملأ ذراعيها بقطع الخشب وتحملها على صدرها كما لو كانت هذه القطع طفلاً ثقيل الوزن . كان الليل قد خيم بارداً .

وبعد أن أدخلت قطع الخشب كافة في الدار ، نظّف الأثنان حذاءيهما بصوت مسموع علىٰ المكشطة الموجودة خارج الدار ، وعلىٰ قطعة الحصير الخاصة بمسح الارجل . اغلقت مارتش الباب وخلعت قبعتها القديمة المصنوعة من اللباد - قبعتها الخاصة بعاملات المزارع - كانت خصلات شعرها الداكن ، الكثيف ، المتموج سائبة ، وكان وجهها شاحباً ومجهداً . دفعت شعرها الىٰ الخلف بطريقة غير دقيقة ، ثم غسلت يديها . وجاءت بانفورد مسرعة الىٰ المطبخ ذي الانارة الضعيفة لتخرج من الفرن الكعكات المسطحة ، المدورة التي كانت تحاول ابقاءها ساخنة .

«ماذا كنتما تعملان كل هذا الوقت ؟» تساءلت مغتاظة . ظننت

أنكما لن تدخلا الدار أبداً . لقد مضت فترة طويلة على انتهائك من نشر الخشب . فماذا كنتما تعملان خارج الدار ؟

اجاب هنري قائلاً : «في الواقع كان علينا سد الفتحة في السقيفة لمنع الجرذان من دخولها» .

«تمكنت من رؤيتك وانت تقف داخل السقيفة ، لا بل تمكنت من رؤية أكمام قميصك» ، قالت بانفورد بتحدٍ .

«أجل !كنت أضع المنشار في مكانه المخصص» .

ذهبوا لتناول الشاي . جلست مارتش بصمت مطبق . كان وجهها شاحباً ومجهداً وغامضاً . أما الشاب ، الذي كان وجهه يتسم دائماً بتلك النظرة المتوردة المتحفظة عينها وكأنه يحاول أن يتكتم على أفكاره لنفسه ، فقد جلس لتناول الشاي مكتفياً بارتداء قميصه حسب وكأنه في بيته الخاص . مال برأسه على صحنه وهو يتناول طعامه .

«ألا تشعر بالبرد وأنت ترتدي القميص فقط ؟» تساءلت بانفورد بنكاية .

رفع نظره اليها وذقنه قريب من صحنه . كانت عيناه حادتين ، صافيتين ، ثابتتين ،عندما نظر اليها .

«كلا ! لا اشعر بالبرد ، فالمكان هنا أدفأ بكثير من الخارج» . قال ذلك بمجاملته الرقيقة المعهودة .

«آمل ان يكون كذلك» قالت بانفورد وهي مغتاظة منه . ان ثقته التي اتسمت بالدماثة والغرابة ، ونظرته الشدوهة الوضاءة ، قد أثارت أعصابها هذه الليلة .

قال برقة و مجاملة : «لربما لا تودين حضوري لتناول الشاي وأنا من غير سترة . لقد نسيت ذلك» .

قالت بانفورد : «اوه ! لا مانع لدي من ذلك» ، قالت ذلك على الرغم من أنها كانت تمانع !

قال : «سأذهب لاحضارها . فهل لي أن أقوم بذلك ؟»

أخفضت مارتش عينيها الداكنتين وهما تستديران نحوه ببطء .

«كلا لا تكلف نفسك» ، قالت مارتش بنبرتها الغريبة التي تشوبها خُنّة ، اذا كنت تشعر براحة كما أنت الآن ، فابق على ما أنت تكلمت بسلطة جافة .

قال : «أجل ! أشعر براحة ، ان لم يكن تصرفي هذا غير لائق» .

قالت بانفورد : «انه في العادة يُعدّ امراً غير لائق ـ ولكننا لا نبالي» .

«هاه ! يعد امراً غير لائق » هتفت مارتش «من ذا يعدّه غير لائق ؟»

«أنتِ يانيلي قبل أي شخص آخر» ، قالت بانفورد وهي تشمخ بعض الشيء من خلف نظاراتها ، وتتحسس الطعام ملتصقاً في بلعومها .

ولكن مارتش كانت قد عادت ثانية الىٰ غموضها وعدم مبالاتها ، تمضغ طعامها كما لو كانت غير مدركة بتاتاً أنها تأكل .

وانتقل الشاب من واحدة الىٰ الاخرىٰ بعينين صافيتين واعيتين .

شعرت بانفورد بالاستياء ، اذ على الرغم من كل مجاملاته الرقيقة وصوته الهادىء بدا لها وقحاً . فلم ترغب في النظر اليه . لم تكن

ترغب في الالتقاء بعينيه الصافيتين الواعيتين أو رؤية ذلك التوهج الغريب في وجهه أو النظر الى خديه بمظهرهما الناعم الرقيق وبشرته المتوردة التي كانت مملة جداً مع انها بدت تلتهب بحرارة حياة غريبة . كان النظر اليه يدفعها الى الشعور بشيء من السقم ، فقد كانت طبيعة حضوره الجسدي نفاذة وحارة الى أبعد حد .

كانت الأمسيات التي تعقب انتهاء وجبة الشاي هادئة . كان الشاب لا يذهب الى القرية إلّا نادراً ، كان يطالع في أغلب الأحيان : ويطالع بكثرة في ساعاته الخاصة . واذا بدأ بالمطالعة فإنه يقرأ باستغراق تام ، ولكنه لم يكن شديد الرغبة في الشروع فيها . كان في أغلب الأحيان يجوب الحقول ، ويسير محاذياً حاجز الشجيرات وحيداً في ظلمة الليل اذ يجوس مدفوعاً بغريزة غريبة تميل الى الليل ، وينصت الى الاصوات البرية .

أما في هذه الليلة فقد انتقىٰ كتاباً من الرف الخاص ببانفورد ثم جلس ، وقد ابتعدت ركبتاه احداهما عن الاخرىٰ ، مستغرقاً في قراءة قصته . كان شعره الأشقر الضارب الى السمرة طويلاً ، وقد رقد فوق رأسه مسرحاً الى الجانب مثل طاقية سميكة . كان يجلس من غير حركة ، مكتفياً بارتداء قميصه ، وقد انحنىٰ الىٰ الامام تحت نور المصباح ، وركبتاه متباعدتان عن بعضهما . كان يمسك الكتاب بيديه وقد استغرق جسمه كله في عملية القراءة المجهدة الىٰ حد ما فأضفىٰ علىٰ غرفة جلوس بانفورد طابع مخيَّمٍ لجمع الاحطاب .

استاءت بانفورد من هذا الوضع ، إذ كانت تغطي أرض غرفة الجلوس سجادة تركية ذات لون أحمر زاهٍ ، يحددها من أطرافها

شريط ذو لون غامق ، وزُيِّن الموقد ببلاط أخضر اللون . وقد انتصب البيانو مفتوحاً وهو يحمل نوطة لآخر قطعة موسيقية راقصة : كانت بانفورد عازفة ماهرة . وقد زينت جدران الغرفة بلوحات البجع وزنابق الماء التي رسمتها مارتش واضافة الى ذلك فأن وجود الحطب محترقاً على نحو بديع داخل الموقد والستائر السميكة المسحوبة ، والابواب المغلقة وأشجار الصنوبر التي تهسهس وترتعش بفعل الريح خارج الدار . كل ذلك كان يضفي علىٰ الغرفة جواً يبعث علىٰ الدفء . ويعكس رفعة الذوق ويثير البهجة في النفس . استاءت بانفورد من هذا الشاب الضخم غير المهذب الذي يرتدي الخاكي ويمد ساقيه الطويلتين الىٰ الامام ويجلس هناك وقد زرر كمي قميصه العسكري حول معصميه الغليظين المشربين بالحمرة . من وقت الى آخر كان يقلب صفحة منَ الكتاب . ومن وقت الى آخر كان يلقي على النار نظرة حادة للتثبت من استقرار قطع الخشب في الموقد ، ثم يستغرق ثانية في عملية القراءة وما تتطلبه من تركيز وعزلة .

كانت مارتش تجلس في الجهة البعيدة من المائدة وهي تحوك قطعة بالسنارة على نحو غير متواصل . كان فمها ملتوياً بطريقة غريبة شبيهة بما كانت عليه عندما حلمت بأن ذيل الثعلب لسعها ـ وقد تناثرت خصلات شعرها الأسود المتموج الجميل . غير ان قوامها كله كان مستغرقاً في احتوائه ، كما لو كانت هي نفسها بعيدة جداً ، ثم بدت بنوع من شبه الحلم ، كأنها تصبح الثعلب يغني حول البيت في الريح ، يغني بعذوبة وحرية مطلقة تشبه الجنون . وبيدين

حمراوين رشيقتين كانت تحوك الخيط الابيض ببطء ، ببطء شديد ودون براعة .

كانت بانفورد تحاول المطالعة أيضاً ، وهي تجلس علىٰ كرسيها الواطيء . ولكنها شعرت بقلق متسم بحركات عصبية بين هذين الاثنين . فقد ظلت تتحرك وتنظر حواليها وتنصت الىٰ صوت الريح ، ثم تنتقل بنظرها من واحد الى الآخر . أما مارتش التي جلست علىٰ كرسي مستقيم وقد وضعت ركبتيها ، اللتين احتواهما سروالها الضيق ، واحدة فوق الاخرىٰ ، وهي تحوك بالسنارة ببطء ومشقة - فقد كانت هي الاخرىٰ في محنة .

قالت بانفورد : «ياالهي!ان عينيَّ ليستا علىٰ ما يرام هذه الليلة» ، قالت ذلك ثم ضغطت باصابع يدها علىٰ عينيها .

رفع الشاب بصره والقىٰ عليها نظرته الحادة الصافية ، ولكنهما لم يتبادلا الحديث .

«أحقا انهما كذلك ؟» تساءلت مارتش بشرود .

ثم عاد الشاب ثانية الى المطالعة كما عادت بانفورد الى كتابها بحكم الظرف . لكنها لم تتمكن من البقاء بلا حركة . وبعد برهة من الزمن رفعت نظرها الىٰ مارتش وقد ارتسمت علىٰ وجهها النحيل ابتسامة صغيرة ، غريبة كادت تكون خبيثة .

ثم قالت على حين غرة :«أعطيك بنساً لقاء معرفة ما يدور في خاطرك» .

التفتت اليها مارتش بعينين سوداوين مجفلتين وقد شحب لونها كما لو أصابها رعب . كانت تنصت الىٰ الثعلب وهو يغني برقة

متناهية ، برقة متناهية ، برقة متناهية عندما كان يدور حول الدار .

«ماذا ؟» تساءلت بغموض .

«أعطيك بنساً لقاء خواطرك»، قالت بانفورد بسخرية .

«أو بنسين ان كانت بهذا العمق» .

كان الشاب يراقب من تحت المصباح بعينين حادتين ، صافيتين .

ثم جاء صوت مارتش المبهم ليقول : «لماذا تريدين تبذير نقودك ؟»

قالت : «ظننت أُنه إنفاق ملائم»

قالت مارتش : «لم أكن أفكر إلّا بالطريقة التي تهب بها الريح» .

أجابت بانفورد ياله من أمر ! كان باستطاعتي شخصياً أن يكون لي مثل هذه الافكار المبتكرة . أخشىٰ أنني بذرت نقودي هذه المرة .

«حسناً ! انك غير ملزمة بالدفع» .

ضحك الشاب فجأة . ونظرت اليه الفتاتان : بدت على مارتش علائم الدهشة كأنها توّاً أدركت أنه كان موجوداً هناك .

تساءل الشاب قائلاً : «هل تقومان حقاً بالدفع في مثل هذه المناسبات ؟»

قالت بانفورد : «أجل ! اننا نقوم بالدفع دائماً . كان عليّ في بعض الاحيان دفع شلن واحد في الأسبوع الى نيلي وذلك في أوقات الشتاء ، فالكلفة أقل بكثير في الصيف» .

تساءل ضاحكاً : «ماذا ؟ أحقاً تدفع احداكما الىٰ الاخرىٰ لقاء معرفة ما في خواطرها ؟»

«أجل ! عندما ننتهي تماماً من الأمور الاخرىٰ كافة» . ضحك

بسرعة هو يفرك أنفه بحدة كالجرو ويقهقه بسرور سريع ، عيناه متألقتان .

قال : «هذه هي المرة الاولىٰ التي أسمح فيها مثل هذا الأمر» .

قالت بانفورد بنبرة تعبر عن الأسىٰ : «أظن أنك ستسمع عن هذا الأمر كثيراً لو قضيت شتاءً كاملاً في مزرعة بيلي» .

سأل الفتىٰ قائلاً : «وهل يصل بكم الملل الىٰ هذا الحد إذاً ؟»

قالت بانفورد : «بل الضجر الىٰ حد بعيد» .

قال ببطء واهتمام : «حقا ؟ وما الذي يدفعكما الىٰ الضجر ؟»

أجابت بانفورد : «ومن ذا الذي لا يضجر ؟»

قال بنبرة حادة : «يؤسفني سماع ذلك» .

قالت بانفورد : «يجب أن تأسف إن كنت تأمل قضاء وقت ممتع هنا» .

نظر اليها طويلاً وبرزانة .

ثم قال بجده الحيوي الغريب : «انها ممتعة الىٰ حد كافٍ في نظري» .

قالت بانفورد : «يسعدني أن أسمع ذلك» .

ثم عادت الىٰ كتابها . كان الشيب قد وخط العديد من خيوط شعرها الخفيف ، الواهن علىٰ الرغم من انها لم تكن بعد قد بلغت الثلاثين من العمر . لم يخفض الفتىٰ بصره ولكنه حول عينيه الىٰ مارتش التي جلست بفمها الملتوي تحوك قطعتها بالسنارة بمشقة وعيناها مفتوحتان غافلتان . كانت لها بشرة ناعمة وشاحبة ودافئة ، وأنف دقيق . وبدا فمها الملتوي حاداً . غير أن ما ناقض

هذا المظهر السليط تقوس حاجبيها الداكنين ـ المرتفعين بغرابة تلفت النظر ـ واتساع عينيها اللتين عكستا غموضاً ودهشة مروعة .. كانت تنصت ثانية بترقب الىٰ الثعلب الذي بدا أنه يتجول علىٰ مسافة نائية في قلب الليل .

ومن تحت حافة ضوء المصباح جلس الفتىٰ ، ووجهه الىٰ الاعلىٰ ، يراقبها بصمت وعيناه مستديرتان فيهما وضوح وعزم شديدان . كانت بانفورد تعض أصابعها بانزعاج وترمقه بنظرات خاطفة من تحت شعرها . جلس هناك بسكون تام وقد ارتفع وجهه عن المستوىٰ الواطيء تحت الضياء علىٰ حافة العتمة مراقباً الامور بعزم مجرد كامل . وفجأة رفعت مارتش عينيها الداكنتين من حياكتها فرأته ، ثم اندفعت بصيحة انطوت علىٰ شيء من التعجب قائلة :

«ها هو ذا !» صاحت من غير إرادتها كما لو أنها جفلت بارتياع .

نظرت بانفورد حولها بتعجب وهي تعتدل في جلستها . «ما الذي أصابك يانيلي» ؟ صاحت بانفورد متسائلة . ولكن مارتش ، التي اكتسىٰ وجهها بلون وردي رقيق ، كانت تنظر بعيداً نحو الباب .

«لا شيء ! لا شيء ! ألا يمكن للانسان أن يقول شيئاً ؟» قالت ذلك بغضب .

أجابت بانفورد : «أجل ان كان لما تقولين معنىً . فماذا كنت تعنين ؟»

«لا أدري ماذا عنيت» صاحت بشراسة .

قالت بانفورد المسكينة : «أواه يانيلي ! آمل أن لا تكوني متوترة الاعصاب وسريعة الانفعال . أشعر أن لا طاقة لي علىٰ تحمل شيء

آخر ! من كنت تعنين ياترىٰ ؟ هل كنت تغنين هنري ؟»

«أجل . أظنني كنت أعنيه» . انها لن تعترف بأمر الثعلب ابداً

«ياالهي ! لم تعد لي قدرة على السيطرة علىٰ أعصابي هذه الليلة» ، قالت بانفورد وهي متشكية .

في الساعة التاسعة جاءت مارتش بصينية فيها خبز وجبن وشاي . كان هنري قد أعرب عن رغبته في تناول فنجان من الشاي شربت بانفورد قدحاً من الحليب وتناولت قليلاً من الخبز . وسرعان ما قالت :

«اني ذاهبة الى الفراش يانيلي . أشعر بأن أعصابي متوترة هذه الليلة ؟ هل ستأتين أنت كذلك ؟»

أجابت مارتش : «أجل . سآتي فوراً بعد أن أضع الصينية في المطبخ» .

قالت بانفورد بتبرم : «لا تتأخري اذن . أتمنىٰ لكَ ليلة سعيدة ياهنري . هل لك أن تتثبت من أن الموقد مطفأ ، إن كنت آخر من سيأوي» .

أجاب بطريقته المطمئنة : «أجل ياآنسة بانفورد . أعدك أنه سيكون مطفأً» .

كانت مارتش تضيء الشمعة لكي تذهب الىٰ المطبخ . وأخذت بانفورد شمعتها ثم ذهبت الىٰ الطابق العلوي . وعندما عادت مارتش الىٰ الموقد خاطبته قائلة :

«أظننا نستطيع الاعتماد عليك في أمر إطفاء النار والتثبت من أن كل شيء علىٰ ما يرام ؟».وقفت هناك وهي تضع يدها على ردفها وقد

أرخت أحدىٰ ركبتيها وحولت وجهها عنه بحياء كأنها لم تستطع النظر اليه . أما هو فقد رفع وجهه وأخذ يراقبها .

قال برقة : «تعالي وأجلسي دقيقة» .

«كلا ، اني سأذهب . ستكون جل بانتظاري وسوف تنزعج إن لم أذهب» .

تساءل قائلاً : «ما الذي جعلك تجفلين بتلك الطريقة مساء اليوم ؟»

ردت مارتش وهي تنظر اليه : «متىٰ جفلت ؟»

قال : «عجباً ! لقد جفلت تواً ، عندما صحتِ»

قالت : «آه ! تعني آنذاك ! ظننت أنك الثعلب» والتوىٰ وجهها في ابتسامة غريبة ، نصف ساخرة .

تساءل برقة : «الثعلب ! لماذا الثعلب ؟»

قالت : «في احدىٰ أمسيات الصيف الماضي ، عندما كنت خارج الدار ، أحمل البندقية ، شاهدت الثعلب بين الحشائش ، كاد يكون قرب قدمي وكان ينظر اليّ مباشرة . لا أدري ، أظنه قد ترك أثراً في نفسي» . ومرة اخرىٰ ، أدارت رأسها جانباً بخجل وارتباك وقد تركت احدىٰ قدميها تتشرد سائبة» .

تساءل الفتىٰ : «وهل أطلقت النار عليه ؟»

«كلا ، فقد أفزعني الىٰ حد بعيد وهو يحدق اليّ مباشرة ، ثم يتوقف ليلتفت وينظر اليّ من فوق كتفه وعلىٰ وجهه ابتسامة» .

«على وجهه ابتسامة !» كرر هنري ، وهو يضحك أيضاً ، ثم أستطرد قائلاً : «لقد أرعبك اذن ، أليس كذلك؟» .

«كلا ، لم يرعبني ، ولكنه ترك أثراً في نفسي حسب»

«أذن أنت ظننت أني كنت الثعلب ، أليس كذلك ؟» . ضحك تلك الضحكة الغريبة ، السريعة ، القصيرة عينها كجرو يفرك أنفه

قالت : «أجل لقد ظننت ذلك برهة . لعله كان في فكري دون أن أدرك ذلك» .

قال وهو يضحك تلك الضحكة الفتية نفسها :

لعلكما تظنان أني جئت لسرقة دجاجكم ، أو لسرقة شيء آخر . ولكنها أكتفت بالنظر اليه بعينين واسعتين داكنتين ، نظرة بلهاء لا معنىٰ فيها .

قال : «أنها المرة الاولىٰ التي يظن فيها أني ثعلب . هل لك ان تجلسي وهلة ؟»

أجابت قائلة : «كلا ! ستكون جِل بانتظاري» . ومع ذلك فانها لم تنصرف ، بل وقفت وقد أرخت احدىٰ قدميها وحولت وجهها جانباً ، خارج حلقة الضوء تماماً .

قال وهو يخفض صوته أكثر من قبل ! «ولكن هل لك أن تردي علىٰ سؤالي ؟»

«لا أعلم أي سؤال تعني»

«لا بل تعلمين ، انك تعلمين فعلاً ... أعني السؤال الذي يتعلق بزواجك بي» .

قالت جازمة : «كلا ، لن أرد علىٰ هذا السؤال» .

«أحقاً ذلك ؟» . ثم ظهرت على أنفه مرة اخرىٰ تلك الضحكة الغريبة ، الفتية . «أترفضين الاجابة لأني مثل الثعلب ؟ هل هذا هو

السبب ؟». ولم يتوقف عن الضحك .

استدارت وحدجته بنظرة طويلة وبطيئة .

قال : «لن أسمح لذلك بأن يجعلك ضدي . دعيني أخفف من شدة ضوء المصباح ، ثم تعالي واجلسي دقيقة» .

وضع يده المشربة بالحمرة تحت وهج المصباح ... وفجأة جعل الضوء خافتاً جداً . وقفت مارتش في العتمة شبحية تماماً ، ولكن من غير حركة . وبصمت نهض واقفاً علىٰ ساقيه الطويلتين . كان صوته الآن رقيقاً وموحياً الىٰ أبعد حد . وبصعوبة يسمع .

«ستبقين لحظة» ، قال : لحظة حسب . ووضع يده علىٰ كتفها فأشاحت بوجهها عنه . «انني لعلىٰ ثقة بانك لا تظنين انني مثل الثعلب» ، قال بصوت ينطوي على الرقة نفسها وبنبرة تشي بالضحك وبسخرية حاذقة . «هل تعلمين ؟» وسحبها بلطف اليه وقبّل عنقها برقة . انتفضت وارتعشت وترنحت ، ولكن ذراعه الفتية ، القوية أمسكت بها ، ثم قبّل عنقها ثانية لأنها أشاحت بوجهها عنه .

«هل لك أن تردي علىٰ سؤالي ؟ هل لك ان تردي عليه الآن ؟» ، جاء صوته رقيقاً متباطئاً . كان يحاول جذبها قريباً منه ليقبل وجهها ، وقبّل خدها قرب الاذن برقة .

في تلك اللحظة سمع صوت بانفورد ينادي باستياء وبغضب من الطابق العلوي .

«ها هي جل تنادي!» . صاحت مارتش وهي تجفل وتنسحب منتصبة .

وعندما فعلت ذلك ، عمد بسرعة البرق الىٰ تقبيلها من فمها : قبلة

سريعة خفيفة . بدت كأن لهيبها قد لسع كل نسيج فيها ، وانطلقت منها صرخة قصيرة وغريبة .

ستجيبين عن سؤالي ، أليس كذلك ؟ ستجيبين ، أصر برقة .

«نيلي ! نيلي ! ما سبب هذا التأخير الطويل ؟» ، جاء نداء بانفورد الضعيف من الظلام الخارجي .

ولكنه أمسك بها بقوة وهو يتمتم بتلك الرقة وذلك الأصرار المفرطين :

«ستجيبين عن سؤالي ، أليس كذلك ؟ قولي نعم ! قولي نعم!»

تمتمت مارتش ـ التي شعرت كأن النار قد نفذت فيها وآذتها ، وكأنها باتت عاجزة وضعيفة ـ تمتمت قائلة :

«أجل ! أجل ! أي شيء تشاء ! أي شيء تشاء دعني أذهب فقط ! دعني أذهب فقط ! ان جل تناديني» .

«أتدركين أنك قد قطعتِ علىٰ نفسك وعداً» ، قال ذلك بمكر وخبث .

«أجل ! أجل ! اني أدرك ذلك» .... ثم أرتفع صوتها الىٰ صرخة حادة وعالية :

«حسناً ياجلّ ، اني قادمة» .

واذ تباغت أطلق سبيلها ، فهرعت مباشرة الىٰ الطابق العلوي .

وعندما جلسوا لتناول الفطور في الصباح ـ بعد ان كان قد ألقىٰ نظرة هنا وهناك في المزرعة ، واعتنىٰ بأمر البهائم وفكر في نفسه في أن المرء يمكنه العيش بسهولة هنا ، خاطب بانفورد قائلاً :

«أتعرفين ما أريد أن أخبرك به يا آنسة بانفورد ؟»

«نعم . ماذا ؟» قالت بانفورد ذات الاخلاق الدمثة والمزاج العصبي .

نظر الى مارتش التي كانت تضع بعض المربىٰ علىٰ الخبز وقال لها :

«هل لي أن أبلغها الخبر ؟»

رفعت نظرها اليه فأكتسىٰ وجهها بلون وردي غامق

قالت : «أجل إن كنت تعني ابلاغ بانفورد آمل أن لا تقوم بنشر الخبر في أرجاء القرية ، هذا كل ما أطلبه ، وابتلعت قطعة الخبز الخالية من الزبدة والمربىٰ بصعوبة .

«ما الخبر المفاجيء هذا ياترىٰ ؟» قالت بانفورد وهي تنظر الى الاعلىٰ بعينين واسعتين ، متعبتين ومحمرتين قليلاً . كانت مخلوقة نحيلة ، ضعيفة ، قصيرة القامة وقد قصَت شعرها الرقيق وغير الكثيف قصيراً ـ شعرها ، بلونه الفاتح المزيج من البني والرمادي ، الذي تدلىٰ بنعومة علىٰ جانبي خديها المتعبين .

«عجباً ! ماذا تظنين ؟» قال وهو يبتسم كمن لديه سر .

«كيف أعرف ؟» ، قالت بانفورد .

«ألا يمكنك أن تحزري ؟» قال وهو يرنو بنظرات مشرقة ويبتسم ، برضىً .

«أنا واثقة باني لا أستطيع ، وعلاوة علىٰ ذلك لن أحاول» .

«سنتزوج أنا ونيلي»

ووضعت بانفورد سكينها على المائدة ، وتركتها تنزلق من بين أصابعها النحيفة الرقيقة ، كأنها قد قررت عدم الأمساك بها لتأكل

ثانية . حدقت بعينين جامدتين ، محمرتين .

وقالت : «ماذا ستفعلان ؟»

قال : «سنتزوج ، أليس كذلك يانيلي ؟» والتفت الىٰ مارتش .

قالت مارتش باقتضاب : «هذا ما تقوله في كل الاحوال» ولكنها توردت مرة أخرىٰ توردا يوحي بكمد ولوعة . ولم تتمكن هي الاخرىٰ من ابتلاع طعامها بعد ذلك .

نظرت اليها بانفورد مثل طير أصيب بعيار ناري ، طير مسكين ، صغير ، عليل . نظرت اليها وقد تجلت كل روحها الجريحة في وجهها . نظرت الىٰ مارتش الشديدة التورد .

«مستحيل !» صاحت فجأة مغلوبة علىٰ أمرها .

«انه خبر صحيح» قال الفتىٰ الذكي الشامت أشاحت بوجهها جانباً كأن منظر الطعام علىٰ المائدة قد أثار أشمئزازها . جلست علىٰ هذه الحال بضع لحظات كأنها مشمئزة . وضعت بعد ذلك يدها علىٰ حافة المائدة ثم انتصبت واقفة .

صاحت قائلة : «لن أصدق ذلك أبداً يانيلي ، أنه أمر مستحيل تماماً» .

كان في صوتها الحزين ، المضطرب خيط غضب ساخن وقنوط .

«لماذا ؟ ما الذي يدفعك الى عدم التصديق ؟» تساءل الفتىٰ وقد جمع في صوته كل ما أوتي به من وقاحة ناعمة ورقيقة .

نظرت اليه بانفورد بعينيها الواسعتين الغامضتين ، كأنه مخلوق في متحف .

«آه !» ، قالت بوهن «لانها لا يمكن أن تكون علىٰ هذه الدرجة من

الحماقة ، لا يمكنها أن تفقد احترام نفسها الىٰ هذا الحد » . كان في صوتها برود وحزن وهو ينساق .

«كيف ستفقد احترام نفسها ؟» تساءل الفتىٰ

نظرت اليه بانفورد من خلف نظارتها بثبات مبهم . وقالت : «إن لم تكن قد فقدته» .

أصطبغ وجهه بلون أحمر قرمزي بتأثير التحديق البطيء ، المبهم الذي أنطلق من خلف النظارات .

قال : «لا أفهم الأمر هذا بتاتاً».

«ربما لا تفهمه ، ولا أظنك تريد فهمه» ، قالت بانفورد بتلك النبرة العريضة المعتدلة النائية التي جعلت من كلامها يبدو أشد إهانة ايضاً .

جلس على كرسيه متخشباً وهو يحدق بعينين ساخنتين ، زرقاوين من وجهه القرمزي اللون وقد إرتسمت على جبينه نظرة بشعة .

«ياالهي ! انها لا تدرك ما ستجره على نفسها من متاعب» . قالت بانفورد بصوتها الحزين ، التائه ، المهين .

قال الشاب بعصبية : «ما الذي يعنيك من الأمر ؟»

«لربما اكثر مما يعنيك أنت» . أجابت وهي تشعر بحزن وحقد .

قال بطريقة متقطعة ، متشنجة : «أحقاً ذلك ؟ اني لا أتصور ذلك أبداً» .

أجابت منجرفة : «كلا ، لا اظنك تتصوّر ذلك» .

«لا جدوىٰ من الجدل في الموضوع في كل الاحوال» ، قالت مارتش وهي تدفع بشعرها الى الخلف وتنهض بطريقة فظة ، ثم التقطت

الخبز وابريق الشاي ومشت بخطوات واسعة الىٰ المطبخ .

تركت بانفورد أصابعها تنساب عبر جبينها وفي شعرها علىٰ غير هدىٰ ، مثل شخص أصابه الذهول . ثم أستدارت وذهبت الىٰ الطابق العلوي للبيت .

جلس هنري علىٰ كرسيه متخشباً وعابساً وقد أستعرت النار في وجهه وعينيه . كانت مارتش تروح وتجيء وهي ترفع الاطباق عن المائدة ، غير أن هنري واصل جلوسه متخشباً من الغضب ولم ينتبه اليها . كانت قد استعادت هدوءها ورباطة جأشها ، كما أستعادت أيضاً نعومة بشرتها التي بدت قشدية اللون . ولكن فمها كان ملتوياً الىٰ الاعلىٰ . كانت تلقي عليه نظرة خاطفة في كل مرة تدخل فيها غرفة الجلوس لترفع شيئاً من علىٰ المائدة . نظرت اليه بعينيها الكبيرتين ، الغريبتين بدافع الفضول أكثر من أي شيء آخر . ياله من فتىٰ عابس ، طويل ، أحمر الوجه . هذا هو كل ما كان عليه هذا الشاب ، وقد بدا بعيداً عنها كما لو كان وجهه الاحمر رأس مدخنة أحمر يقبع فوق سطح أحد البيوت الريفية عبر الحقول . أما هي فقد نظرت اليه بالموضوعية نفسها والبرود ذاتهِ . أخيراً نهض ، ومشىٰ ببطء الىٰ الحقول وهو يحمل البندقية . ولم يعد الىٰ الدار حتىٰ وقت الغداء حيث كانت امارات الغضب ما تزال ظاهرة على وجهه ، وان ظل اسلوبه في التخاطب مؤدباً جداً . لم يقل أي منهم شيئاً معيناً ، فقد جلس كل منهم في زاوية مثلث حادة ملتزماً بعزلة عنيدة . خرج بعد الظهر فوراً مرة اخرىٰ وهو يحمل البندقية ، وعاد الىٰ الدار في الغسق وقد جلب معه أرنباً وحمامة . بقي في الدار طوال الأمسية

ولكنه لم ينبس بكلمة . كان منفعلاً غاية الأنفعال وهو يشعر بأنه قد أهين .

كانت عينا بانفورد حمراوين . من الواضح انها كانت تبكي . ولكن سلوكها كان أكثر ابتعاداً وترفعاً من قبل . فالطريقة التي كانت تلتفت بها اليه اذا ما تكلم كأنه أحد المتسكعين أو متطفل وضيع من هذا النوع ـ كادت تحوّل لون عينيه الزرقاوين الىٰ لون أسود من شدة الغضب . بدا وجهه أكثر تقطيباً ، لكنه لم يتخل في كلامه عن النبرات المؤدبة اذا فتح فمه ليتكلم .

بدت مارتش منتعشة في هذا الجو . بدت جالسة بين الخصمين ، وعلى وجهها ابتسامة شديدة ، وهي تستمتع بما ترىٰ . كان هناك نوع من الرضىٰ الذاتي عن الطريقة التي حاكت بها بجهد خيوط شغل السنارة تلك الليلة .

وعندما آوىٰ الشاب الىٰ فراشه ، كان باستطاعته سماع الفتاتين وهما تتحدثان وتتجادلان في غرفتهما . انتصب جالساً في فراشه ، وأجهد أذنيه لسماع ما كانتا تقولانه . ولكنه أخفق في سماع شيء لبعد المسافة . ومع ذلك استطاع سماع النبرات الرقيقة الحزينة لصوت بانفورد ، وتلك النبرات الأكثر عمقاً لصوت مارتش .

كانت الليلة هادئة ، شديدة البرد ، وكانت النجوم الكبيرة خارج البيت تتساقط بعيداً عن رؤوس قمم أشجار الصنوبر . أستمع ، وأستمع . سمع عواء ثعلب من بعيد ، وسمع نباح الكلاب من المزارع رداً على ذلك العواء . ولكنه لم يرد الأستماع الىٰ كل ذلك ، بل الى ما كانت تقوله الأمرأتان .

انسل من فراشه خلسة ووقف وراء باب غرفته . ولكنه لم يسمع أكثر مما سمعه قبل . بدأ برفع مزلاج الباب بحذر شديد جداً ، جداً . وبعد وقت طويل تمكن من فتح الباب ، ثم خطا خلسة الىٰ الممر . كانت ألواح خشب السنديان القديمة باردة تحت قدميه . وقد صرّت علىٰ نحو لا يتصوره العقل . تسلل علىٰ مهل ليرتقي السلمة الوحيدة ، ثم سار بمحاذاة الحائط حتىٰ وصل ليقف خارج باب غرفة الفتاتين . وهناك حبس أنفاسه وأسترق السمع . جاء صوت بانفورد :

«كلا ، لا أتمكن من تحمل هذا ، سأموت خلال شهر ، وهو فعلاً ما يهدف اليه تماماً ، وهذا هو ما يريده تماماً : أن يدفعني الىٰ المقبرة . كلا يانيلي ، اذا أردت الزواج به فلا يمكنك الاستمرار في البقاء هنا . لا يسعني العيش معه في البيت نفسه . أوه ! إني أشمئز من رائحة ملابسه ، ووجهه الاحمر يثير قرفي ، بل لا يمكنني أن آكل طعامي عندما يكون جالساً علىٰ مائدة الطعام . ما أحمقني عندما سمحت له بالبقاء هنا . علىٰ الانسان أن لا يحاول أبداً صنع المعروف . فالمعروف يرتد دائماً الىٰ نحرك شأنه في ذلك شأن القوس الخشبية التي أذا ما رميت ترتد الىٰ راميها» .

قالت مارتش : «لم يبق له غير يومين»

«أجل ، ولنشكر السماء علىٰ ذلك . وعندما يذهب فلن يعود ثانية الىٰ هذه الدار . اني لا أشعر بالراحة ابداً ما بقي هنا . وأنا أدرك ، أدرك أنه يحصي فقط ما يمكنه الحصول عليه منك ، هذا هو كل ما في الأمر ، وأنا أدرك ذلك . إن هو إلّا إنسان لا خير فيه . لا يريد العمل

ويظن أنه سيعيش علىٰ مدخولنا . ولكنه لن يعيش أبداً على مدخولي أنا . واذا كنت حمقاء الىٰ هذا الحد فان الأمر يخصك أنت وحدك . كانت السيدة برجس على بيّنة تامة من أمره طوال المدة التي كان قد قضاها هنا . وقد أخفق الجد العجوز في دفعه الىٰ القيام بأي عمل ثابت . كان يأخذ البندقية وينطلق بعيداً في كل مناسبة ، كما يفعل الآن . لا يهوىٰ شيئاً سوىٰ البندقية ... رباه ! كم أكره هذه الحال . أنتِ لا تدركين ما تعملين يانيلي ، لا تدركين واذا تزوجته فأنه سيجعل منك أضحوكة ، سيرحل عنك ويهجرك . أدرك انه سيفعل ذلك اذا أخفق في الحصول على مزرعة (بيلي) منا . ولن يتمكن من ذلك مادمت أنا باقية علىٰ قيد الحياة . لن يعود ثانية هنا ما حييت . أنا أعرف كيف تكون الحال لو تم له ما أراد ، فسرعان ما سيظن أنه سيد الجميع مثلما يظن الآن أنه قد أصبح سيدك»

قالت نيلي : «ولكنه ليس بسيدي»

انه يظن ذلك على أية حال ، وهذا ما يريده : أن يأتي هنا ليصبح السيد . أجل ! عليك تصور الأمر بهذه الصيغة ، ألهذا السبب عمدنا الىٰ الحصول على هذه المزرعة ؟ هل قمنا بذلك من أجل أن نُسيرَّ ويضطهدنا فتىٰ أحمر الوجه مثيراً للاشمئزاز ، يضطهدنا عامل كريه ؟ لقد أخطأنا حقاً عندما سمحنا له بالمكوث . ما كان علينا ان نحط من قدر نفسينا ، فقد جاهدت كثيراً لكي لا أهبط الىٰ مستوىٰ الناس الذين يسكنون هذه المناطق . كلا انه لن يعود هنا . وسترين بعد ذلك ـ اذا أخفق في الحصول علىٰ هذا المكان فإنه سيهرب ثانية الىٰ كندا ، أو الىٰ مكان آخر وكأنه لم يعرفك من قبل .

وهكذا ستجدين نفسك انساناً محطماً واضحوكة . أدرك جيداً أني لن انعم براحة البال ثانية .

قالت مارتش : «سنخبره بانه لا يمكنه العودة الىٰ هنا ، سنخبره بذلك»

«لا تكلفي نفسك فسأخبره أنا بهذا الأمر وبأمور أخرىٰ اضافة الىٰ ذلك قبل أن يذهب .. انه لن يسّير كل الأمور على وفق هواه مادمت أملك القدرة علىٰ الكلام . أوه يانيلي ، سيمقتك ، أجل سيمقتك ، وهذا هو ديدن أمثاله من الوحوش ، أذا أستسلمتِ له . لا يمكنني أن أثق به أكثر من ثقتي بعدم انصراف القطة الىٰ السرقة . انه شخص لا يسُبر غوره ، أجل لا يسُبر غوره ، وهو متسلط وأناني جداً ، لا بل تعوزه العاطفة والرحمة ، بارد برودة الثلج . ان كل ما يريده هو استغلالك . وعندما تعودين غير ذات نفع له سأرثي لك عندئذ» .

قالت مارتش : «لا أظنه شريراً وخبيثاً الىٰ هذا الحد» .

«كلا ، لأنه أخذ يتملقك . ولكنك ستكتشفين الحقيقة اذا ما قضيت معه مدة طويلة . آه يانيلي ، لا يمكنني تحمل التفكير في الامر»

«لن يتسبب الأمر هذا بجرح مشاعرك ياحبيبتي جل»

«أحقاً ما تقولين ! أحقاً ما تقولين ! لن أنعم بلحظة راحة بعد ذلك ما حييت ولا بلحظة سعادة . كلا يانيلي» . قالت بانفورد ذلك وبدأت تبكي بمرارة .

استطاع الفتىٰ الذي وقف خارج الغرفة أن يسمع صوت نحيب المرأة المكبوت ، وأن يسمع كذلك صوت مارتش الناعم ، الحنون ، ذا النبرات العميقة يواسي المرأة الباكية برقة وبلطف رائعين .

كانت عيناه من السعة والاستدارة ما جعله يبدو كأنه يستطيع أن يرىٰ الليل كله ، بل كادت اذناه تنطلقان من رأسه ، كان متصلباً بجمود ... انسلّ عائداً الىٰ فراشه ، ولكنه شعر كأن قمة رأسه كانت تنخلع من مكانها . لم يستطع النوم ، لم يستطع ان يبقىٰ ساكناً . نهض ، لبس ملابسه بهدوء وانسل مرة ثانية الىٰ السلم . كانت الامرأتان صامتتين . نزل بهدوء الىٰ الطابق الاسفل وتوجه الىٰ المطبخ .

بعد ذلك لبس حذاءه ومعطفه وتناول البندقية بيده . لم يفكر في الرحيل عن المزرعة .. كلا . أخذ البندقية فقط . فتح الباب بقدر ما استطاع من رقة وهدوء ، ثم خرج الى ظلمة ليل كانون الاول القارس البرد . كان الهواء ساكناً والنجوم لامعة . وبدت أشجار الصنوبر بارزة في السماء بشكل مسموع . انسل بعيداً لينحدر الىٰ جانب سياج وهو يفتش عن شيء ليطلق النار عليه . وتذكر في الحين نفسه وجوب التزامه بعدم اطلاق النار وارعاب المرأتين .

وهكذا ، جاس حول طرف المنطقة التي غطتها النباتات ـ وعبر أيكة البهشيات[٢] القديمة ، الطويلة ـ نحو طرف الغابة . هناك سار بمحاذاة السياج وهو يحدق الىٰ الظلمة بعينين متسعتين بدتا قادرتين

(٢) نبات ذو ورق صقيل شائك الأطراف وزهْر صغير ضارب الى البياض ـ المترجم ـ

على أن تغدوا سوداوين وان تريا ، كعيني قط ، كل شيء في الظلام ، كانت بومة تنعق ببطء وبحزن حول شجرة بلوط ضخمة . خطا خلسة يحمل بندقيته وهو ينصت ، ينصت ويراقب .

وفي أثناء وقوفه تحت شجرة البلوط عند حافة الغابة ، سمع كلاب البيت الريفي المجاور ، الواقع علىٰ مرتقىٰ التل ، تعوي فجأة وعلىٰ حين غرة سمع نباح كلاب المزارع المجاورة التي استيقظت من نومها لترد . وفجأة بدا له أن انجلترا كانت صغيرة ومكتظة . شعر بأن المشهد الطبيعي حوله محدود حتىٰ في الظلام ، وبأن الكلاب في الليل كثيرة الىٰ حد كبير وهي تثير ضجيجاً كأنه سياج من الصوت ، كأنه شبكة من الأسيجة النباتية الانجليزية تكاد تحجب المنظر . شعر بأن الثعلب لم يكن له أي أمل في النجاة ، إذ لابد أن الثعلب هو الذي قد أثار كل هذه الضوضاء .

لماذا لا يترقبه في كل الاحوال ! لاشك في أنه ، سيأتي ليتشمم في المناطق المجاورة . مشىٰ الفتىٰ نحو الطرف الادنىٰ من التل حيث كانت المزارع بما فيها من أشجار الصنوبر القليلة تربض باكتئاب . وعند زاوية السقيفة الطويلة ، في الظلمة القاتمة . جلس القرفصاء ... لقد أدرك أن الثعلب قادم . وبدا له أن الثعلب هذا سيكون آخر الثعالب في هذه المنطقة من انجلترا ذات الضُّباح(٣) العالي والصوت الأجش ، المزدحمة بعدد لا يحصىٰ من البيوت الصغيرة .

www.library4arab.com/vb

(٣) الضباح : صوت الثعلب .

جلس وقتاً طويلاً وقد تسمرت عيناه ، بثبات ، في المدخل المفتوح حيث بدا أن نوراً ضعيفاً قد انحدر من النجوم ، أو من الأفق .. من يعلم ؟ كان يجلس على لوح من الخشب في زاوية مظلمة وقد وضع البندقية على ركبتيه . فرقعت أشجار الصنوبر . وفي وهلة هبطت دجاجة من مكانها في الحظيرة محدثة جلبة ونقيقاً عاليين أجفلاه . وقف يراقب بملء عينيه ظاناً قد يكون فأراً . ولكنه شعر بأنه لم يكن في الامر ثمة شيء . وبذلك جلس ثانية وقد وضع البندقية علىٰ ركبتيه وغطىٰ يديه لتبقيا دافئتين ، ثم ثبت عينيه ، دون حركة ، علىٰ المشارف الشاحبة المؤدية الىٰ البوابة المفتوحة . شعر أن باستطاعته ان يتنسم رائحة الدجاج الحي القوية ، المقرفة ، الدافئة ـ في الهواء البارد .

ومن بعد ثمة ظل . ظل منزلق في المدخل . جمع نظره في ومضة مركزة ورأىٰ ظل الثعلب ، الثعلب يزحف على بطنه عبر البوابة . وهكذا زحف على بطنه كالافعىٰ .. ابتسم الفتىٰ في نفسه ، ورفع البندقية الىٰ كتفه . لقد عرف جيداً ما سيحدث ، عرف أن الثعلب سيذهب الى الباب الذي وضع علىٰ مدخل مأوىٰ الدجاج ليتشمم هناك ، عرف أنه شيجثم هناك وهلة وهو يتشمم رائحة الدجاج في المأوىٰ ، وأنه ، بعد ذلك ، سيبدأ ثانية ليجوس تحت حافة الحظيرة القديمة ، منتظراً الدخول .

كان الباب في النهاية العليا لسطح قليل الانحدار . وبخفة كالظل إنسل الثعلب الىٰ أعلىٰ المنحدر هذا ، وجثم واضعاً أنفه على الألواح الخشبية . في اللحظة نفسها تردد صوت فرقعة بندقية مروعة ـ

فرقعة دوت بين المباني القديمة وكأن الليل كله قد تهشم .ولكن الفتىٰ راقب باهتمام . رأىٰ حتىٰ البطن الأبيض للثعلب حين أخذ هذا الوحش يضرب بمخالبه محتضراً . وبذلك تقدم الىٰ الأمام .

عمت الجلبة كل مكان . أخذ الدجاج ينق ويتحرك مهتاجاً ، والبط يبطبط عالياً ، أخذ المهر يضرب الارض بحافريه بضراوة ، أما الثعلب فقد استلقىٰ على جنبه ينازع وهو في رعشاتهِ الأخيرة . انحنىٰ الفتىٰ فوقه وشم رائحته الثعلبية الماكرة .

كان هناك صوت نافذة تفتح في الطابق العلوي ، ثم جاء صوت مارتش منادياً : «من هناك ؟»

قال هنري : «هذا أنا ، لقد قتلت ، تواً ، ثعلباً» .

«ياالهي ! لقد أرعبتنا الىٰ حد الموت»

«حقاً ؟ اني آسف جداً»

«ماالذي دفعك الىٰ النهوض من فراشك ؟»

«سمعته يتجول في أطراف المزرعة»

«وهل تمكنت من قتله ؟»

«أجل ، فهو هنا» . ثم وقف الفتىٰ في فناء الدار وهو يمسك بالحيوان الدافىء ، الميت «لا يمكنك رؤيته ، أليس كذلك ؟ انتظري لحظة» . ثم أخرج مصباحه اليدوي من جيبه ، وسلط نوره علىٰ الحيوان الميت . كان يمسك به من ذيله . ولم تر مارتش ، وسط الظلمة ، غير الفراء الضارب الىٰ الحمرة والبطن الأبيض والجزء السفلي الأبيض من ذقنه المدبب ومخالبه الغريبة المتدلية ووجدت نفسها عاجزة عن الكلام .

قال : «انه جميل . ستصنعين منه فراء جميلاً»

أجابت : «لن تراني ألبس فراء ثعلب»

«حقاً ؟» ، ثم أطفأ المصباح .

«حسناً ! أظنك ستدخل الآن الدار وتأوي الى فراشك ثانية».

«من المحتمل أن أفعل ذلك . كم الساعة الآن» ؟

«كم الساعة الآن ياجل ؟» جاء صوت مارتش متسائلاً .. كانت الساعة هي الواحدة إلا ربعاً .

راود مارتش حلم آخر تلك الليلة . حلمت بأن بانفورد قد توفيت وبأنها ، أي مارتش ، كانت تبكي بحرارة . كان عليها ان تضع بانفورد في تابوتها ، وكان التابوت هو الصندوق الخشبي الخشن الذي كانت توضع فيه قطع الخشب في المطبخ بجانب الموقد . كان هذا هو التابوت ، ولم يوجد غيره ، وكانت مارتش تشعر بألم وبحيرة مذهلة وهي تبحث عن شيء لتبطين الصندوق ، شيء يجعله ناعماً ، شيء يغطي هذه الحبيبة المسكينة الميتة ، لأنه لم يكن باستطاعتها أن تضعها في الصندوق الخشبي الرهيب وليس عليها غير قميص النوم الأبيض الخفيف ، وهكذا فتشت ، وفتشت بدقة ، ثم التقطت شيئاً بعد آخر لتلقيه جانباً بعذاب الاحباط الحلمي وخيبته . ووسط هذا اليأس الذي أصابها في الحلم ، لم تجد ما يفي بالغرض سوى جلد الثعلب . أدركت جيداً أنه لم يكن لائقاً . ولكنه كان كل ما استطاعت الحصول عليه . وهكذا ، فإنها طوت ذيل الثعلب ووضعت رأس حبيبتها جل عليه ، ثم لفت جلد الثعلب ووضعته فوق الجثة ليصبح غطاءً أحمر ناري اللون . فبكت وبكت ثم إستفاقت لتجد

الدموع تجري علىٰ وجهها .

كان أول ما قامت به هي وبانفورد في الصباح ، الخروج لمشاهدة الثعلب . كان هنري قد علقه داخل السقيفة من قائمتيه الخلفيتين ، وقد تهاوىٰ ذيله المسكين الىٰ الخلف .. كان ذكر ثعلب جميل في ريعان العمر ، ذا فراء سميك وجميل ، لونه ذهبي ضارب الىٰ الحمرة ، يغدو رمادياً حين يمتد نحو البطن ، وبطن أبيض تماماً ، ذيله كبير ، مليء له نهاية دقيقة ، سوداء ، رصاصية ، وبيضاء صافية .

قالت بانفورد : «ياللوحش المسكين . لو لم يكن وغداً مجبولاً علىٰ السرقة الىٰ حد بعيد لشعرت بالأسىٰ عليه !»

لم تنبس مارتش بكلمة ، ولكنها وقفت وقدمها مسحوبة الىٰ الجانب ، وإحدىٰ وركيها تبرز الى الخارج . كان وجهها شاحباً ، وعيناها كبيرتين وسوداوين ، وهي تراقب الحيوان الميت الذي علق ورأسه الىٰ الأسفل . كان بطنه رقيقاً أبيض كالثلج : رقيقاً ، أبيض كالثلج . حركت يدها برقة فوق هذا البطن . وكان ذيله الأسود المتلألىء ، المدهش ممتلئاً يتحرك حال الاحتكاك به ، مدهشاً . وأمرت يدها على الذيل ايضاً ، فارتعشت . ومرة بعد أخرىٰ ، تناولت فراء ذلك الذيل السميك بين أصابعها ، وأمرت يدها عليه من الاعلىٰ الىٰ الاسفل كان ذيلاً مدهشاً ، حاداً سميكاً ، وكان الثعلب ميتاً . لوت شفتيها واصبحت عيناها سوداوين خاليتين من المعنىٰ ، ثم أخذت الرأس بين يديها .

كان هنري يقترب منها وهو يمشي ببطء ، ولذلك ابتعدت بانفورد

باسلوب دل بعض الشيء على انه اعتراض على الشاب . وقفت مارتش هناك مرتبكة وقد أمسكت رأس الثعلب بيدها . كانت تنظر بعجب .. تنظر بعجب واستغراب الى أنفه الطويل الرفيع . ولسبب ما ذكّرها بملعقة أو بملوَق . شعرت بأنها غير قادرة على فهمه . كان الوحش هذا وحشاً غريباً عليها لا يمكن فهمه ، لا بل خارج مداها . كان له شاربان فضّيان ، مدهشان . كانا مثل خيوط جليدية وأذنان منتصبتان في داخلهما شعر ، وهناك ذلك الأنف الطويل الذي كان أشبه بملعقة رفيعة . وتحت الأنف الاسنان البيضاء البديعة ! كانت هذه الاسنان للطعن في جسد الفريسة الحية ، ولعضه بعمق ، بعمق ، بعمق ، ولعق ، ولعق الدم .

قال هنري وهو يقف بجانبها : «أنه جميل ، أليس كذلك ؟»

أجابت مارتش : «أجل ، أنه ثعلب كبير ، رائع . ياترى عن افتراس كم دجاجة هو مسؤول ؟»

«عدد كبير . أتظنين أنه الثعلب نفسه الذي شاهدته في الصيف ؟»

أجابت : «من المرجح جداً أن يكون هو نفسه على ما أظن» .

راقبها ، ولكنه لم يتمكن من سبر اغوارها . كان ذلك ، الى حد ما ، بسبب كونها خجولة جداً وعذراء قليلة الخبرة . والى حد ما أيضاً كونها كانت عابسة الى حد كبير ، لا بل سليطة ، وقد بدا ما قالته مختلفاً عن نظرة عينيها الكبيرتين ، الغريبتين ، الداكنتين .

تساءلت قائلة : «هل تقوم بسلخه ؟»

«أجل عندما انتهي من الفطور والعثور على لوحة لكي أوتده فوقها» .

«ياالهي ! إن له رائحة قوية .. أفٍ سيتطلب غسل اليد جهداً كبيراً . لا أدري لماذا كنت حمقاء الىٰ حد أنني لمسته وأمسكت به» ، قالت ذلك ثم نظرت الىٰ يدها اليمنىٰ التي كانت قد حركتها فوق بطنه وعلىٰ امتداد ذيله وتلطخت أيضاً بخط صغير جداً من الدم في موقع داكن من فرائه .

قال : «هل لاحظت كيف ترتعب الدجاجات عندما تشم رائحته ؟»

«اجل ، انها ترتعب حقاً».

«عليك أن تحذري من أن تلتقطي بعض ما عليه من براغيث» .

أجابت بغير اكتراث : «براغيث !»

وفي وقت لاحق من ذلك اليوم رأت جلد الثعلب مسطحاً علىٰ لوح خشبي وقد ثبت علىٰ هذا اللوح بمسامير ، كما لو كان مصلوباً . انتابها نتيجة ذلك شعور بعدم الراحة .

كان الفتى غاضباً . تجول هنا وهناك بفم مغلق كأنه قد ابتلع جزءاً من ذقنه ، ولكنه بقي مؤدباً ودمثاً في تصرفاته . لم يفصح بشيء عن نيته وقد ترك مارتش وشأنها .

جلسوا في غرفة الطعام تلك الليلة ، اذ لم تعد بانفورد تسمح باستضافته في غرفة جلوسها بعد ذلك . كان في الموقد قطعة خشب كبيرة . انشغل الجميع . كان على بانفورد كتابة عدد من الرسائل وكانت مارتش تخيط ثوباً ، أما الفتى فقد انشغل بتصليح اداة ميكانيكية صغيرة .

كانت بانفورد تتوقف عن كتابة الرسائل ، بين فترة واخرى ،

لتلقي نظرة حولها ولتريح عينيها . كان الفتىٰ قد حنىٰ رأسه غامراً وجهه في عمله .

قالت بانفورد : «لنرَ في أي قطار ترغب الذهاب ياهنري ؟»

رفع نظره مباشرة اليها .

قال : «في قطار الصباح ، في الصباح» .

سألت : «أتعني قطار الثامنة وعشر دقائق أم قطار الحادية عشرة وعشرين دقيقة ؟»

قال : «بل قطار الحادية عشرة وعشرين دقيقة على ما أظن» .

قالت بانفورد : «سيكون ذلك بعد غد»

قال : «أجل في اليوم الذي يلي يوم غد»

«مم !» تمتمت بانفورد ثم عادت الى الكتابة . ولكنها تساءلت وهي تلعق مظروفها :

«وما هي مشاريعك للمستقبل ان كان بمستطاعي التساؤل ؟»

قال : «مشاريع ؟» وبدا وجهه غاضباً ومتلامعاً .

«اعني شأنكما ، أنت ونيلي ، اذا كنتما عازمين على المضي بهذا الامر . متى تتوقع ان يتم الزواج ؟» ، تكلمت بنبرة تهكمية .

«آه ، الزواج» ، اجاب ، «لااعلم»

قالت بانفورد : «ألاتعرف اي شيء ؟ هل ترحل يوم الجمعة وتترك الامور على ماهي عليها الان ؟» .

«حقاً ، ولم لاافعل ذلك ؟ نستطيع دائماً تبادل الرسائل» .

«أجل ، يمكنكما ذلك فعلاً ، ولكني اردت ان أعرف من أجل هذا

المكان . اذا تزوجت نيلي فجأة فانه يتوجب البحث عن شريكة جديدة» .

قال : «الا يمكنها الاستمرار بالبقاء هنا اذا تزوجت ؟» قال ذلك وقد ادرك جيداً ماسيأتي .

قالت بانفورد : «لايمكن لزوجين البقاء هنا . لايوجد ، بالدرجة الاولى ، عمل كافٍ يؤمّن للرجل قوته باستمرار ، ولايوجد مجال لكسب المال . ومن غير المجدي اطلاقاً ان تفكر في البقاء هنا اذا تزوجتما» .

قال «أفهم ذلك ، ولكنني لم اكن افكر في البقاء هنا» .

«هذا ماأردت معرفته ، وماذا عن نيلي ، اذاً ؟ كم من الوقت ستبقى معي هنا على هذه الحالة ؟»

نظر الخصمان الى بعضهما .

اجاب : «لايمكنني الاجابة عن هذا السؤال»

صاحت بانفعال ، وبأسلوب فظ : «دعك من هذا الكلام ! لابد ان تكون لك فكرة عما تريد الوصول اليه عندما تطلب الزواج بامرأة .. اللهم إلا اذا كان الامر كله خدعة» .

«ولماذا يكون خدعة ؟ اني عائد الى كندا»

«وتنوي اصطحابها معك ؟»

«اجل من غير شك»

قالت بانفورد : «هل تسمعين ذلك يانيلي ؟»

كانت مارتش قد حنت رأسها فوق عمل الخياطة الذي انشغلت به ، ولكنها الآن نظرت الى الاعلى وقد علت وجهها حمرة خجل

حادة ، وظهرت في عينيها ، وعلى فمها الملتوي ضحكة تهكمية ، غريبة .

قالت : «هذه هي المرة الاولى التي سمعت بها أنني ذاهبة الى كندا» .

قال الفتىٰ : «لابد ان تسمعيها أول مرة ، أليس كذلك ؟»

«اجل ، لابد لي من ذلك على ماأظن» ، قالت ذلك بغير اكتراث ثم عادت الى خياطتها مرة اخرى .

«انت اذن على استعداد تام للذهاب الى كندا ، أليس كذلك يانيلي ؟» تساءلت بانفورد .

نظرت مارتش الى الاعلى مرة اخرى . أرخت كتفيها ومدت يدها التي تمسك بالإبرة لتستلقي بحرية في حضنها .

قالت : «يعتمد ذلك على كيفية ذهابي ، لاأظنني ارغب في السفر في زحمة الدرجة الاخيرة بالباخرة على أني زوجة جندي . اخشى أني لست معتادة على هذه الطريقة» .

راقبها الفتىٰ بعينين صافيتين .

تساءل قائلاً : «هل تفضلين البقاء هنا ريثما اذهب اولاً ؟»

أجابت : «اجل افضل ذلك ان كان ذلك هو الخيار الوحيد» .

قالت بانفورد : «هذا هو الحل الاكثر حكمة . لاتلزمي نفسك بأي ارتباط ثابت . اعطي لنفسك حرية القرار في الذهاب او البقاء بعد ان يكون قد عاد الى كندا وحصل لك على مكان للسكن يانيلي . إن أي اجراء آخر هو جنون ، جنون» .

قال الفتى : «ألا تظنين أننا يجب ان نتزوج قبل سفري ، ومن ثم

نذهب معاً او كلاً على انفراد ، حسبما تقتضيه الظروف ؟»

صاحت بانفورد : «اظنها فكرة مخيفة جداً» .

كان الفتى يراقب مارتش .

سألها قائلاً : «مارأيك ؟»

تركت عينيها تتيهان في الفضاء بغموض .

قالت : «حقاً ، لااعرف . يتعين عليَّ التفكير في الأمر» .

«لماذا ؟» تساءل باصرار .

«لماذا ؟» ، كررت سؤاله بطريقة ساخرة ، ثم نظرت اليه ضاحكة على الرغم من ان وجهها غدا وردياً مرة اخرى ، ثم قالت : «هناك الكثير من الاسباب على ماأظن» .

راقبها بصمت . بدت كأنها قد أفلتت منه . لقد دخلت في حلف مع بانفورد ضده . ومرة اخرى ظهرت عليها تلك النظرة الغريبة ، الساخرة . كانت على استعداد للاستهزاء ، برباطة جأش وعدم مبالاة ، من كل مايقوله او ماتعطية الحياة .

قال : «لاأريد فعلاً أن ادفعك الى القيام بعمل لاترغبين في القيام به» .

«آمل ان لاتفعل ذلك حقاً» ، صاحت بانفورد بنبرة ساخطة .

عندما حان وقت النوم قالت بانفورد تخاطب مارتش بنبرة حزن : «إجلبي لي كيس ماء الحار ، يانيلي» .

«أجل ، سأفعل ذلك» ، قالت مارتش بنوع من عدم الرغبة الطوعية التي كثيراً ما أبدتها لحبيبتها جل ، المتقلبة .

ذهبت المرأتان الى الطابق العلوي . وبعد فترة نادت مارتش من

اعلى السلم قائلة : «ليلة سعيدة ياهنري - لن انزل الى الأسفل . هل لك ان تطفىء نور المصباح ونار الموقد ؟» .

في اليوم التالي ، تجول هنري هنا وهناك مكفهر الجبين ، وبدا وجهه الفتي ، الذي يشبه وجه الأشبال ، عابساً مدلهماً . كان يتأمل ويفكر طيلة الوقت . اراد ان تقبل مارتش الزواج به والعودة معه الى كندا . وكان على ثقة باستجابتها لذلك . لم يعرف لماذا ارادها ، ولكنه ارادها . وكان قد عقد العزم عليها ، وقد اهتز بكل ماامتلك من عنف الشباب لكونه مرفوضاً ، ان يُرفض ، ان يُرفض ، ان يُرفض . لقد أشعل هذا الرفض غضبه الفتي في داخله حد أنه لم يعرف ماعساه ان يفعل بنفسه . ولكنه كظم غيظه وضبط نفسه . كان هناك احتمال ، حتى ذلك الوقت ، ان تأخذ الامور مجرى مغايراً ، قد تنحاز الى جانبه ، وقد تفعل ذلك بلاريب ، اذ كان من مصلحتها ان تفعل ذلك .

تأزمت الاوضاع مرة اخرى باقتراب المساء . كان قد تحاشىٰ بانفورد كما تحاشته . في الواقع ، ذهبت بانفورد الى المدينة الصغيرة في قطار الحادية عشرة وعشرين دقيقة . كان ذلك اليوم هو يوم إقامة السوق[٤] . وقد عادت في قطار الرابعة وخمس وعشرين دقيقة . وفي أول حلول المساء تماماً شاهد هنري قوامها الصغير . وقد لفه معطف ازرق داكن واعتلته قبعة تامية[٥] زرقاء داكنة ايضا شاهدها وهي

---

(٤) يوم مخصص (من كل اسبوع) يجلب فيه المزارعون وصغار التجار من القرويين بضائعهم الى ساحة السوق (وهو موقع مكشوف تقام فيه السوق في المدن) لبيعها - المترجم -

(٥) قبعة اسكتلندية الاصل تصنع اعتيادياً من الصوف . يكون الجزء العلوي منها مسطحاً ، يبرز حول الرأس وتتوسطه كرة صوفية . والقبعة هذه تشبه (البيريه) العسكرية - المترجم -

تجتاز المرج الاول بعد المحطة . وقف تحت احدى شجيرات الكمثرى البرية وقد احاطت الاوراق القديمة الميتة بقدميه .... راقب هذه القامة الزرقاء تتقدم باصرار فوق المرج الوعر الذي تركه الشتاء من غير انسجام ... امتلأت يداها بالرزم . كانت تتقدم ببطء ، كانت مخلوقة ضئيلة ، الا أن لديها تلك الثقة الشيطانية التي كرهها فيها . وقف متخفياً تحت شجيرة الكمثرى ، وهو يراقب كل خطوة من خطواتها . لوكان للنظرات اي تأثير فيها لشعرت كأن قطعة حديد على كل من ركبتيها ، وهي تشق طريقها الى الأمام . وعِبر المسافة التي فصلت بينهما كان يقول بهدوء : «لستِ إلا مخلوقة ضئيلة كريهة . أجل انك لكذلك حقاً . ايتها المخلوقة الضئيلة ، الكريهة ، آمل ان تنالي جزاءك لقاء ماالحقت بي من أذى من غير سبب . أجل ، آمل ان تنالي جزاءك ايتها المخلوقة الضئيلة ، الكريهة ، آمل ان تُجبري على دفع الثمن ، وستدفعين الثمن ، لاريب في ذلك ، ان كتب للاماني ان تتحقق . ايتها المخلوقة الضئيلة ، الكريهة» .

كانت تكدح ببطء ، وهي تسير الى اعلى المنحدر . فلو قدر لها ان تزل قدمها فتهوى الى الخلف ، عند كل خطوة باتجاه الهاوية السحيقة ، لما تقدم لمساعدتها وحمل هذه الرزم عنها . ولكن ، ها قد هرعت مارتش وهي تخطو بخطواتها الارضية العريضة ، الطويلة وقد لبست سروالها وسترتها القصيرة . كانت تسير بخطوات سريعة الى أسفل التل ـ لا بل تركض بين حين وآخر باهتمامها وعطفها الكبيرين ، وبرغبتها في الذهاب لانقاذ بانفورد الضئيلة . راقبها

الفتى وقد شبت في فؤاده نار الغضب . كان يراها وهي تثب من فوق قناة وتركض ، وتركض ـ كما لو كانت تحاول الوصول الى بيت شبت فيه النيران ـ تركض للوصول حسب الى ذلك الشيء الصغير ، الداكن الذي كان يدب هناك ! . وقفت بانفورد بسكينة .. وانتظرت ... ومشت مارتش بخطوات طويلة واخذت منها كل الرزم غير حزمة من الاقحوان الاصفر ، اذ ظلت بانفورد تحمل هذه الحزمة من اقحوان اصفر !! .

قال بهدوء ، ورقة في ريح الغسق : «أجل ، انكِ تبدين بخير ، أليس كذلك ؟ تبدين وانت تتلكئين هناك حاملة حزمة ورد ، لو ضممت هذه الحزمة بشدة الى صدرك لاجبرتك على اكلها في وجبة الشاي ، ولقدمتها لك ثانية في وجبة الإفطار . هذا ماأريد حقاً ان اقوم به ، اطعمك ورداً ، ولاشيء غير الورد» .

راقب تقدم المرأتين . كان باستطاعته ان يسمع صوتيهما ! مارتش التي تتكلم دائماً بصراحة مفرطة ودون تحفظ ، وتشوب رقتها مسحة من توبيخ ، وبانفورد التي تتمتم بشيء من الغموض . واضح جداً انهما كانتا صديقتين حميمتين . لم يستطع سماع ماكانتا تقولانه حتى وصلتا الى المرج الأخير الذي كان عليهما ارتقاؤه . ثم شاهد مارتش وهي تعبر الحواجز بعزم ومن غير تردد وهي تحمل الرزم بيديها . وفي الهواء الساكن سمع بانفورد وهي تقول باستياء :

«لماذا لاتدعيني اساعدك بحمل هذه ؟» كان في صوتها نغمة

غريبة ، حزينة ، ثم جاء صوت مارتش بنغمتهِ المتهورة ، الشديدة القوة :

«يمكنني معالجة الامر ، لاتقلقي نفسك بشأني . فإنك تحملين ماتقدرين على حمله» .

قالت بانفورد بنبرة تذمر : «أجل ، انت بارعة في النصيحة . تقولين لاتقلقي نفسك بشأني بينما تشعرين دائماً بالاذىٰ مما تلمسينه من عدم اهتمام الاخرين بك»

قالت مارتش : «متىٰ شعرت بالاذىٰ ؟»

«دائماً ، انك ابداً تشعرين بالاذىٰ . وهذه حالك الان بسبب رفضي مجيء هذا الفتى للعيش في المزرعة» .

قالت مارتش : «اني لاأشعر بالاذىٰ ابداً»

«اني ادرك أنك تشعرين بالاذىٰ . ستبدين متجهمة ، عابسة بعد ان يذهب . انا ادرك ذلك جيداً» .

قالت مارتش : «هل سأقوم بذلك حقاً ؟ سنرى» .

«أجل سنرى . ولكنني للأسف ، لااستطيع ان اتصور كيف تجعلين من نفسك رخيصة الى هذا الحد . وكيف تذلين نفسك الى هذا الحد» .

قالت مارتش : «لم اذل نفسي»

«لادري ماتسمين ذلك اذن . تسمحين لفتىٰ مثله بالتصرف بهذه الوقاحة والصفاقة وباستغفالك . لادري كيف تنظرين الى نفسك . الى أي مدىٰ سيكون لك الاحترام في نفسه فيما بعد ؟ يا الهي لاارضى ان اكون في مكانك لو تزوجتِه» .

«لاشك في انك لاترضين ان تكوني في مكاني . فإن ماارتديه لايناسب مقاييس جسمك ، ولايضفي عليك مظهراً أنيقاً» قالت مارتش بشيء من التهكم غير المؤثر .

«ظننت أنك تعتزين بنفسك كثيراً . هذا حقاً ماظننته . على المرأة ان تسمو بنفسها لاسيما ازاء فتىً مثل هذا . انه وقح حقاً حتى في الطريقة التي فرض بها نفسه علينا في البداية» .

قالت مارتش : «دعوناه الى البقاء» .

«لم نطلب منه ذلك إلا بعد أن كاد يجبرنا على ذلك .. ثم انه مغرور جداً وواثق بنفسه الى حد بعيد . ياالهي ، انه حقاً يثير الغضب في نفسي . لايمكنني أن اتصور كيف تسمحين له بمعاملتك بهذا الاسلوب الرخيص» .

قالت مارتش : «اني لااسمح له بالتصرف معي على هذا النحو . لاتقلقي نفسك . لن يعاملني احد بطريقة رخيصة ، حتى انتِ لايمكنكِ ذلك» .... كان في صوتها مسحة من تحدٍّ رقيق وانفعال واضح .

«أجل ، من المؤكد ان اكون انا الملامة ..» ، قالت بانفورد بمرارة . «هكذا ينتهي النقاش بيننا دائماً . أظنك تلجئين الى ذلك لإغاضتي عمداً حسب» .

وبصمت مضت المرأتان تسيران الى اعلى المرتفع المعشب ، الشديد الانحدار ، عبر احراش الشجيرات الشائكة . وفي الجانب الاخر من السياج النباتي كان الفتىٰ يتبعهما من مسافة قصيرة ، وبين حين وآخر وعبر سياج الزعرور البري ـ ذلك السياج القديم

الكبير الذي نما فتحول الى شجيرات ـ استطاع ان يرى الشكلين الداكنين يتسلقان اعلى التل . وعندما وصل الى اعلى المنحدر شاهد البيت قائماً في الغسق ، وشجيرة الكمثرى الكبيرة القديمة تميل قرب السقف المحدب . وقد تلألأ مصباح صغير اصغر من نوافذ المطبخ الجانبية الصغيرة . سمع صوت المزلاج ، ثم شاهد باب المطبخ ينغمر بالضوء حين دخلت المرأتان . انهما إذن في الدار .

هكذا اذن ! هذا رأيهما فيه . كان من طبعه استراق السمع ، ولذلك لم يدهشه ما كان يطرق سمعه . وما يقوله الناس عنه لم يؤثر فيه شخصياً . أدهشته ، الى حد ما الطريقة التي تتعامل بها المرأتان احداهما مع الاخرى . وقد كره بانفورد كرهاً شديداً ، وشعر ثانية بانجذاب الى مارتش . شعر ثانية بأنه كان منجذباً اليها بقوة لايمكن مقاومتها . شعر بأن ثمة رباطاً سرياً ، لابل خيط سري ، بينه وبينها ، إنه شيء استثنائي جداً ، حجب الناس جميعهم وجعلهما ، هو ومارتش فقط ، يمتلك احدهما الاخر سراً .

تمنىٰ مجدداً ان ترضىٰ به . تمنى ، وقد غلىٰ دمه وثارت ثائرته فجأة ، ان توافق على زواجهما بسرعة جداً ، لابل في اثناء عيد الميلاد ان امكن ذلك . فعيد الميلاد ليس بعيداً . اراد ، بغض النظر عن اي شيء اخر ، ان يختطفها ليعقد قرانه بها سريعاً ، أو أن يتزوجها . اما المستقبل ، فيمكن تدبر أمره في وقت لاحق . ولكنه تمنى أن يحدث ذلك كما اراد له ان يكون ، وتمنى ان تبقىٰ معه بعض الوقت في هذه الأمسية بعد أن تكون بانفورد قد ذهبت الى الطابق العلوي . تمنىٰ لو يتمكن من لمس خدها القشديّ اللون الناعم ووجهها الغريب

الخائف . تمنى لو استطاع النظر الى عينيها الداكنتين الخائفتين الواسعتين من مسافة قريبة جداً ، بل تمنى لو استطاع حتى وضع يده على صدرها ، ليتحسس نهديها الرقيقين من تحت سترتها . دق قلبه بعنف وبعمق عندما فكر في ذلك . أراد أن يفعل ذلك بكل جوارحه . أراد ان يتثبت من وجود نهديها الانثويين الرقيقين تحت سترتها . كانت دائماً تزرر معطفها الكتاني ، البني اللون حتى يصل الى حد عنقها . بدا له كأن ثمة سراً خطيراً يجبر نهديها الانثويين ، الرقيقين على ان يكونا حبيبي هذه البزة . وبدا له ، اضافة الى ذلك أنهما ـ وهما حبيسا هذه البزة ـ كانا اكثر رقة ونعومة ، لابل اكثر حلاوة واكثر جدارة بالحب من نهدي بانفورد اللذين يظهران من تحت قمصانها الفضفاضة الرقيقة وفساتينها الحريرية الشفافة . ثم قال لنفسه لابد أن لبانفورد هذه نهدين صغيرين صلبين . فعلى الرغم من نحافتها وتبرمها ورقتها ، إلا أنه لابد أن يكون لها نهدان صلبان . أما مارتش فلابد ان يكون لها نهدان بيضاويان ، رقيقان ، تحت سترتها العمالية البسيطة المزررة باحكام ـ نهدان بيضاويان وغير منظورين . هكذا قال لنفسه ، واضطرمت في دمه النيران .

وعندما دخل لتناول الشاي كانت هناك مفاجأة امامه ـ ظهر عند الباب الداخلي ـ بوجه شديد التورد والوضوح وبعينين زرقاوين متلامعتين ـ وهو يحني رأسه الى الامام في اثناء دخوله على طريقته المعهودة ، متردداً فوق عتبة الباب ليراقب ما في داخل الغرفة قبل ان يدخل ، بحذر ووعي ثاقب ... كان يلبس صداراً ذا اكمام طويلة .

وعلى نحو استثنائي بدا وجهه قطعة تنتمي الى العراء وجدت طريقها الى الداخل : كما يبدو شجر توت شرابة الراعي[٦] . وفي اثناء توقفه الثاني عند مدخل الغرفة رأى المرأتين ، وهما تجلسان على المائدة متقابلتين ، رآهما بوضوح . ومما أثار دهشته انه شاهد مارتش وقد ارتدت ثوباً من الكريب الحريري ذا لون اخضر معتم . فغر فاه تعجباً . فلو كان قد نبت لها شاربان فجأة لما بدا له اكثر دهشة وتعجباً .

قال : «حقاً ! وهل تلبسين الفساتين اذاً ؟»

رفعت عينيها ، وقد اصطبغ وجهها بلون وردي غامق ، ثم قالت وهي تلوي فمها بابتسامة :

«أفعل ذلك من غير شك ، واي شيء اخر تتوقع ان البس غير الفساتين ؟»

قال : «من المؤكد بزة العمل»

«آه !» قالت بلا مبالاة ، «هذه البزة هي للعمل فقط ، هنا وسط الوحل والاوساخ» .

قال : «فهو ليس لبسك الاعتيادي اذاً ؟»

قالت : «كلا ، هو ليس ماالبس داخل البيت» . ولكنها كانت تحمر خجلاً طوال الوقت ، عندما كانت تصب له الشاي . جلس على كرسيه عند المائدة وهو عاجز عن رفع بصره عنها . كان فستانها الكريب ، ذو اللون الاخضر الضارب الى الزرقة ، بسيطاً يزيّنه خيط

---

(٦) شرابة الراعي : نبات ذو اوراق كبيرة ، صقيلة وشائكة الاطراف تستخدم عادة لتزيين شجرة عيد الميلاد . وبهذا النبات زهر صغير ابيض اللون وتوت احمر ـ المترجم ـ

ذهبي طُرز حول الجزء العلوي منه وحول الكمين اللذين امتدا الى المرفقين . وكانت قَصَّة الجزء العلوي منه بسيطة ومدورة بحيث كشفت عن عنقها الابيض الناعم . اما ذراعاها اللتان كان يعرفهما فقد كانتا قويتين ومفتولتي العضل ، اذ كان دائماً يراها مشمرة الساعدين . غير انه نظر اليها من الاعلى الى الاسفل ، من الاعلى الى الاسفل .

لم تنبس بانفورد بكلمة واحدة ، وهي تجلس في الطرف الاخر من المائدة ، بيد انها كانت تعبث بقطع سمك السردين في صحنها . لقد نسي الشاب وجودها تماماً ، كان يحدق الى مارتش فقط ، وهو يزدرد الخبز والزبد النباتي بملء فمه ، ناسياً حتى الشاي .

تمتم خلال لقمته الكبيرة قائلاً : «حقاً ، لم ادرك ابداً ان ثمة ما يفعل مثل هذا الفرق الكبير» .

صاحت مارتش وقد ازداد وجهها توردا : ياإلهي ! قد اكون قردة وردية اللون !» .

نهضت بسرعة وحملت ابريق الشاي الى النار ، الى الغلاية . وعندما انحنت فوق الموقد ، يضمها فستانها الاخضر ، حدق اليها الشاب بعينين اكثر اتساعاً من قبل . بدا قوامها الانثوي لدناً خلل قماش فستانها الكريب . وعندما انتصبت ومشت ، رأى ساقيها تتحركان بنعومة ورقة داخل الجزء الاسفل من فستانها العصري ، القصير . وكانت تلبس جوارب حريرية سوداء اللون وحذاء لماعاً ، اسود بمشبك ذهبي صغير .

كلا ، كانت انساناً اخر ، كانت مختلفة تماماً . كان قد اعتاد ان

يراها دائماً وهي تلبس سروال العمل الخشن القماش ـ الواسع عند الردفين ، والمزرر عند الركبتين ، القوي كالدرع ـ ولفاف الساق البني اللون وحذاءها الغليظ ، وبذلك لم يكن قد خطر في باله ابداً أن لها ساقي امرأة وقدميها . لقد توضحت له الحقيقة الان .. كان لها ساقان ملفوفتان ، ناعمتان . وكانت في متناول اليد . علته حمرة الخجل حتى جذور شعر رأسه ، ثم دفع بقوة أنفه في فنجان الشاي وشرب شايه محدثاً صوتاً خفيفاً ضايق بانفورد الى ابعد حد . وعلى نحو غريب شعر فجأة بانه رجل ، شعر بأنه له يعد فتىً ، شعر بأنه رجل بكل مايحمله الرجل من عبء المسؤولية الثقيل . وغمر روحه هدوء ووقار غريبان .. شعر بأنه رجل هادىء ، يحمل شيئاً من ثقل قدر الرجال .

كانت رقيقة وسهلة المنال في فستانها . اقتنع بهذه الفكرة التي نفذت في فكره مثل مسؤولية أبدية .

صاحت مارتش بتذمر قائلة : «حباً لله لينطق احدكما بكلمة هل نحن نجلس في مأتم ؟» نظر الفتىٰ اليها . لم تستطع تحمل النظر الى وجهه .

«مأتم !» قالت مارتش بابتسامة ملتوية ، «حقاً هذا يكشف أمر حلمي» .

واستعادت فجأة في ذهنها صورة بانفورد داخل صندوق الخشب .. الصندوق الذي كان هو التابوت .

قالت بانفورد بسخرية : «بماذا كنت تحلمين ؟ بعرس ؟»

قالت مارتش : «لابد انه كان ذلك» .

تساءل الولد : «عرس من ؟»

قالت مارتش : «لاأستطيع ان اتذكر» .

كانت في تلك الليلة خجولة ومحرجة الى حد ما ، على الرغم من ان تصرفها ، وهي تلبس الثوب النسائي ، كان اكثر هدوءاً ولطفاً مما كان عليه وهي في بزتها . شعرت بأنها لم تكن مجردة من ثيابها ومكشوفة الى حد ما ، شعرت بأنها غير محتشمة الى حد ما .

تحدّثوا على نحو متقطع وغير مترابط عن رحيل هنري صباح اليوم التالي واتخذوا الاجراء الاعتيادي . اما الموضوع الذي كان يدور في رؤوسهم ، فلم يتطرق اليه اي منهم . كانوا هادئين الى حد ما في ذلك المساء وعلى وفاق . لم يكن لدى بانفورد شيء معين تقوله . اما في داخلها فقد بدت ساكنة ، وربما عطوفة .

في الساعة التاسعة جلبت مارتش الصينية التي وضع فيها الشاي الخالد وشيء من اللحم البارد الذي كانت بانفورد قد تمكنت من الحصول عليه . كان العشاء الاخير ، ولذلك لم تشأ بانفورد ان تكون مكروهة . شعرت بشيء من الشفقة تجاه هذا الفتى ، كما شعرت بأنها يجب ان تجامله مااستطاعت الى ذلك سبيلاً .

اما الفتى فارادها ان تأوي الى فراشها . كانت كالمعتاد أول من يأوي الى فراشه ولكنها جلست على كرسيها تحت المصباح تلقي نظرة خاطفة على كتابها بين حين وآخر ، وتمعن في النظر الى النار . خيم على الغرفة صمت عميق قطعته مارتش وهي تسأل بنبرة خافتة بعض الشيء :

«كم الساعة الان ياجل ؟»

«العاشرة وخمس دقائق» ، قالت بانفورد وهي تنظر الى رسغها .

عاد الصمت بعد ذلك . كان الفتى قد رفع عينيه عن الكتاب الذي كان يضعه بين ركبتيه . كان وجهه العريض بعض الشيء ، القِطيّ الشكل يحمل تلك النظرة المتعنتة كما كانت عيناه واعيتين .

قالت مارتش اخيراً : «مارأيك في النوم ؟»

قالت بانفورد : «اني جاهزة عندما تكونين انتِ جاهزة» .

قالت مارتش : «حسناً ، سأذهب لملء كيس الماء الحار» .

كانت مارتش عند وعدها . فعندما اصبح كيس الماء الحار جاهزاً اضاءت شمعة وذهبت بها الى الطابق العلوي . بقيت بانفورد في مقعدها وهي تنصت بحدة . نزلت مارتش الى الطابق الارضي مرة اخرى .

قالت : «انت هنا اذن ، فهل تنوين الصعود ؟»

قالت بانفورد : «اجل بعد دقيقة» . ولكن الدقيقة مضت وبانفورد مستمرة في الجلوس على كرسيها ، تحت المصباح .

أما هنري ـ الذي كانت عيناه تبرقان كعيني قط وهو يراقب الفتاتين من تحت حاجبيه وبدا وجهه أعرض واكثر امتلاءً واكثر شبهاً بوجه القط بتعنته الراسخ ـ فانه نهض واقفاً ليجرب رميته . قال :

«اظنني سأذهب لأفتش عسىٰ أن أهتدي الى انثى الثعلب . لربما اجدها تدور خلسة هنا وهناك . فهل لك ان تأتي ، برهة ، انت كذلك لعلنا نتمكن من رؤية شيء ما ؟»

«أنا ؟» . صاحت مارتش . وهي تنظر الى الاعلى بوجهها الذي

ظهرت عليه إمارات الجفول والتعجب .

قال : «أجل هلمي بنا» . كان امراً مدهشاً : ماأقدر صوته على أن يكون ناعماً ، كم ناعماً ودافئاً ومتملقاً وقريباً . كان الاستماع حسب الى صوته يجعل الدم يغلي في عروق بانفورد . «تعالي مجرد لحظة» ، قال وهو يخفض بصره الى وجهها المرفوع ، المتهيب .

ونهضت .. كأنها مسحوبة بفعل وجهه اليانع ، المشرب بالحمرة الذي كان ينظر اليها من علٍ .

«لااظنك عازمة على الخروج في هذا الوقت المتأخر ، يانيلي !» صاحت بانفورد .

«أجل ، دقيقة واحدة فقط ، قال الفتى ملتفتاً اليها وهو يتكلم بصوت غريب فيه عواء حاد .

أخذت مارتش تنقل نظرها من احدهما الى الاخر كأنها مشوشة وغامضة . ونهضت بانفورد استعداداً للقتال .

«يالها من فكرة سخيفة . فالبرد قارص . ستلقين حتفك وانتِ بهذا الثوب الخفيف ، وهذين الخفين ، لن تقومي بمثل هذا العمل» .

كان هناك لحظة توقف . كانت بانفورد تتحرك بسرعة وبعصبية مثل ديك عراك صغير ، وهي تواجه مارتش والفتىٰ .

«أجاب : «لاداعي للقلق على ماأظن» . فلحظة تحت النجوم لن تلحق الضرر بأي انسان . سأجلب البساط الصغير من فوق الأريكة في غرفة الطعام . إنك قادمة يانيلي .

كان في صوته ، وهو يخاطب بانفورد ، الكثير من الغضب والازدراء والانفعال ، والكثير من الرقة والسلطة المتغطرسة عندما

خاطب مارتش حتى أنها أجابت الاخيرة قائلة :

«أجل ، اني قادمة» . واستدارت معه نحو الباب .

انفجرت بانفورد فجأة وهي واقفة هناك وسط الغرفة ، في عويل طويل ونوبة من التنهد . غطت وجهها بيديها النحيفتين الهزيلتين ، واهتز كتفاها النحيلتان ألماً من البكاء . وعند الباب التفتت مارتش ونظرت اليها .

«جل !» ، صاحت بنبرة مضطربة كمن استفاق تواً . بدت كأنها تتجه نحو حبيبتها .

غير ان الفتى كان يمسك ذراع مارتش بيده ـ فلم تتمكن من الحركة . لم تدرك لماذا لم تكن قادرة على الحركة . كانت الحالة اشبه بما يحدث في حلمها عندما يرهق القلب ويعجز الجسم عن الحركة .

قال الفتىٰ برقة . «لابأس ، دعيها تبكي ، دعيها تبكي ، ستضطر الى البكاء عاجلاً أو آجلاً ، ستخفف الدموع من مشاعرها ، بل ستفيدها» .

وهكذا سحب مارتش ببطء عبر المدخل . ولكنها القت نظرتها الاخيرة على ذلك القوام البائس الضئيل ، الذي وقف وسط الغرفة بوجه مغطىٰ وكتفين نحيلتين تهتزان ببكاء مرّ .

في غرفة الطعام التقط البساط وقال : «تدثري بهذا البساط» . اطاعته . ووصلا الى باب المطبخ ، وهو يمسك بذراعها برقة وحزم ، على الرغم من انها لم تدرك ذلك . وعندما شاهدت الليل خارج الدار تراجعت الى الخلف .

قالت : «ينبغي أن أعود الى جل ، لابد لي من العودة اليها ، أجل لابد» .

بدت نبرتها قاطعة . ترك الفتى يدها . فاستدارت لتدخل البيت .

«انتظري لحظة »، قال ، «انتظري لحظة . لن تذهبي الان حتى لو قررت الذهاب» .

صاحت : «اتركني ! اتركني . إن مكاني بجانب جل . انها لمسكينة . إن بكاءها يدمي قلبها» .

«اجل» ، قال الفتى بمرارة ، «وسيدمي قلبك وقلبي ايضاً» .

قالت مارتش : «قلبك ؟» ظل يمسك بها ويحتجزها .

قال : «ان مشاعر قلبي لاتقل عن مشاعر قلبها أتظنين أنه غير ذلك ؟»

«قلبك ؟» ، قالت مرة اخرى بنبرة تعبر عن الشك .

«أجل ، قلبي ، قلبي أنا ! أتظنين أنني بلا قلب ؟» وبيده الحارة سحب يدها وضغط بها تحت الجانب الايسر من صدره وقال : «هذا هو قلبي .. إن كنت لاتؤمنين بوجوده» .

كانت الدهشة هي التي جعلتها تصغي ، ثم تحسست دقة قلبه العميقة الثقيلة ، القوية .. المرعبة مثل شيء من العالم الاخر . كان مثل شيء من العالم الاخر ، شيء مخيف قادم من الخارج ، يومىء اليها . لقد شلتها هذه الإشارة ، مست روحها تماماً فجعلتها ضعيفة لاعون لها . نسيت جل .. لم تعد قادرة على تذكر جل بعد ذلك .. لم تعد قادرة على التفكير فيها .. تلك الإشارة الرهيبة من الخارج !

لف الفتى ذراعه حول خصرها .

«تعالي معي» ، قال بهدوء . «تعالي ودعينا نقول مايجب علينا ان نقوله» .

جذبها الى الخارج واغلق الباب . وسارت معه بغموض وبكآبة في ممر الحديقة . ان يكون له فؤاد خافق ! وان يطوق خصرها بذراعه دون الدثار الذي كانت تتلفع به ! كانت مشوشة ومرتبكة على نحو جعلها غير قادرة على ان تفكر فيه : من يكون حقاً .

اخذها الى زاوية مظلمة من السقيفة ، حيث يوجد صندوق لحفظ الادوات ذو غطاء طويل وواطىء .

قال : «سنجلس هنا لحظة من الزمن»

جلست ممتثلة الى جواره

«اعطني يدك» ، قال .

اعطته كلتا يديها ، فضمهما في يديه ، كان يافعاً ، فسرت فيه رعشة .

«ستتزوجينني ، ستتزوجينني قبل أن أعود ، أليس كذلك ؟» قال بتوسل .

قالت : «حقاً ، ألسنا طائشين ؟»

كان قد وضعها في الزاوية كي لايضطر الى النظر خارجاً ليرى نافذة البيت المضاءة عبر الحديقة المظلمة . حاول ان يبقيها بكيانها كله داخل السقيفة معه .

قال : «على أي وجه تعتقدين بأننا مجنونان ؟ لو عدت معي الى كندا ستجدين أن لي عملاً وأجراً جيداً ينتظرني ، كما أن موقع العمل يقع في منطقة جميلة وقريبة من الجبال . ماالذي يجعلك

ترفضين الزواج بي ؟ ماالذي يمنعنا من الزواج ؟ ارغب في ان تكوني معي هناك . اريد أن أشعر بأن لي شخصاً هناك يكون لي ظهيراً طوال العمر» .

قالت : «ستجد بسهولة فتاة اخرى تليق بك على نحو أفضل» .

قال : «أجل ، لربما سأجد فتاة اخرى بسهولة . ادرك جيداً أنني استطيع ذلك . ولكنها لن تكون الانسان الذي أريده حقيقة . لم التق ابداً من اردت ان تبقى معي طوال العمر . الا ترين أنني افكر في حياتي كلها . فإذا تزوجت اريد ان اشعر بانه زواج العمر ، أما بقية الفتيات فهن محض فتيات يكتفي الانسان بالتنزه معهن بين الحين والاخر ... يكتفي المرء بالتسلية معهن بعض الوقت . ولكني عندما افكر في حياتي فلابد ان أشعر بالاسىٰ اذا ما اضطررت الى أن اتزوج احداهن سأشعر بالاسىٰ حقاً» .

«أتعني أنه لايمكن ان تكون أية واحدة منهن زوجة صالحة لك ؟»

«اجل ، هذا ماأعنيه . ولكني لاأعني أنهن لايؤدين واجباتهن تجاهي أنا ، أعني لاادري ماذا أعني ، الا أنني عندما افكر في حياتي وفيك أجد أن الاثنين منسجمان معاً» .

«وماذا لو كانا غير منسجمين ؟» قالت بلمستها الغريبة ، الساخرة .

«لابل أظنهما سيكونان منسجمين»

جلسا صامتين بعض الوقت . كان يحتفظ بيديها في يديه ، ولكنه لم يطارحها الحب ، إذ تملك نفسه غمٌ ما منذ ادرك انها كانت امرأة سريعة التأثر ، سهلة المنال . لم يرد ان يطارحها الحب ، احجم عن

الاقدام على اية ممارسة من هذا النوع ـ احجام كان مصحوباً بخوف . كانت امرأة سريعة التأثر ، يمكنه نيلها اخيراً ، فاحجم عن ذلك الشيء الذي كان آتياً : احجام كان يشوبه الهلع . كان نوعاً من الظلمة التي عرف مسبقاً انه سيدخلها في نهاية المطاف والتي لم يشأ في ذلك الوقت حتى التفكير فيها . كانت هي المرأة ، وكان هو مسؤولاً عن سرعة التأثر الغريبة التي كان فجأة قد ادركها فيها .

«كلا» ، قالت اخيراً ، «اني حمقاء ، وانا ادرك أنني حمقاء»

تساءل قائلاً : «ماالذي يدفعك الى هذا القول ؟»

قالت : «الاستمرار بهذا الامر»

تساءل : «هل تعنيني انا ؟»

«بل اعني نفسي أنا . انني اجعل من نفسي اضحوكة ، واضحوكة كبيرة»

«لماذا ، ألأنك لاتريدين حقا أن تتزوجيني ؟»

«لاادري ان كنت حقاً ضد الفكرة ، في الواقع هنا تكمن المشكلة ، اني لاادري» .

نظر اليها في الظلمة محتاراً . لم يدرك تماماً ماذا كان وراء كلامها .

وتساءل : «أو لا تعلمين ان كنتِ راغبة في الجلوس معي هنا في هذه اللحظة أم لا ؟»

«كلا ، في الواقع لا ادري ، لا ادري ان كنت ارغب ان اكون في مكان اخر او البقاء هنا . لا اعرف ذلك حقاً» .

سأل بتحدٍّ : «هل تتمنين لو انك الآن تجلسين مع الانسة

بانفورد ؟ هل تتمنين لو كنت قد أويت الى الفراش معها ؟»

انتظرت وقتاً طويلاً قبل ان تجيب ثم قالت اخيراً : «كلا ، لااتمنى ذلك»

قال : «وهل تظنين انك ستقضين حياتك كلها معها ـ عندما يشتعل رأسك شيباً وتهرمين» .

أجابت من غير تردد : «كلا ، لاارى اننا سنبلغ شيخوختنا ، انا وجِل · ونحن مستمرتان في العيش معا» .

قال : «الا تظنين ايضاً اننا قد نستمر في البقاء معاً ، كما نحن الان ، عندما يكون كلانا قد بلغ سن الشيخوخة ؟» .

اجابت : «ليس كما نحن الان . ولكنني استطيع التصور ـ كلا ، لااستطيع ، لااستطيع تصورك رجلاً عجوزاً .. اضافة الى ذلك ان الامر مروع جداً !»

«أمروع ان يكبر الانسان ؟»

«اجل بلا ريب»

قال : «لن يكون مروعاً عندما يحين الوقت . ولكن الوقت لم يحن ، غير انه آتٍ لا ريب . وعندما يحين فاني ارغب في ان اتصورك هناك ايضاً» .

«انه نوع من تقاعد الشيخوخة» ، قالت بطريقة جافة .

لطالما اذهلته بمزاحها الخالي من الفطنة . لم يدرك ابداً ماالذي كانت تعنيه ، ولعلها هي نفسها لم تكن تدرك ذلك .

«كلا» ، قال مستاءً .

قالت : «لادري لماذا تلح على ذكر الشيخوخة» ،

«لم ابلغ التسعين من العمر».

«هل قال لك احد إنك قد بلغت التسعين من العمر ؟» قال بلهجة من جرح شعوره .

كانا صامتين بعض الوقت ، كل منهما يسرح في واديه .

قال : «لااريد ان تسخري مني»

اجابت بغموض : «حقاً ؟»

«اجل ، لاني جاد في هذه اللحظة تماماً . وعندما اكون في مزاج جاد فاني لاأومن بالسخرية منه» .

اجابت : «تعني يجب ان لايسخر منك احد ؟»

«اجل ، هذا ماعنيت ، واعني اني شخصياً لا اؤمن بالسخرية منه . فعندما يستبد بي شعور يضطرني الى ان اكون جاداً فاني لااريد ان يسخر منه احد» .

كانت صامتة بعض الوقت ، ثم قالت بنبرة مبهمة ، مشوبة بشيء من الألم :

«كلا ، اني لااسخر منك»

وتحركت في قلبه موجه ساخنة .

تساءل قائلاً : «انك تصدقينني ، أليس كذلك ؟»

«اجل ، اني اصدقك» ، اجابت بعدم اكتراثها المتعب ، المعهود ذي الخنة ، لكأنها استسلمت لانها بلغت حد التعب ، ولكنه لم يكترث ، كان قلبه ساخناً وصاخباً .

«اذاً انت توافقين على زواجنا قبل ان اذهب ؟ ربما في عيد الميلاد ؟»

«اجل أوافق» .

وجلس صامتاً ، غير واع بكل الدم الذي كان يضطرم في عروقه كلها ، مثل نار شبت في كل جزء من جسمه . ضغط كلتا يديها دون ان يدري على صدره حسب ، .. وعندما اخذ هذا الوجد الغريب بالهدوء بدأ يستفيق للدنيا .

قال : «لنذهب الى الداخل ، أليس كذلك ؟» وكأنه قد ادرك ان الجو كان بارداً .

نهضت من غير ان تجيب

قال : «قبليني قبل ان ندخل البيت ، بعد ان اعلنت عن موافقتك» .

قبلها برقة من ثغرها ـ قبلة فيها حياة وخوف ، قبلة جعلتها تشعر بانها يافعة جداً ايضاً ، وخائفة ومندهشة ومتعبة .. متعبة ، كانها كانت تستسلم للنوم .

دخلا البيت . وهناك في غرفة الجلوس كانت بانفورد قابعة قرب النار مثل ساحرة غريبة وضئيلة . نظرت حولها بعينين محمرتين ، حال دخولهما ، ولكنها لم تنهض . اعتقد بانها كانت تبدو مخيفة وغير طبيعية ، وهي تقبع هناك وقد التفتت لتنظر اليهما .. اعتقد بان نظراتها كانت شريرة .. فشبك اصبعيه .

شاهدت بانفورد وجه الفتى المشرب بالحمرة والمبتهج . بدا طويلاً على نحو غريب متألقاً ، وغير واضح المعالم . كما ظهرت على وجه مارتش نظرة رقيقة ، فأرادت اخفاء وجهها وحجبه وعدم أظهاره للعيان .

«ها قد عدتما اخيراً» ، قالت بطريقة مشاكسة

قال : «اجل ، لقد عدنا»

قالت : «لقد قضيتما وقتاً يكفي للقيام بأي عمل»

اجاب : «اجل لقد قضينا وقتاً كهذا ، لقد انهينا الموضوع . سنتزوج في أقرب فرصة ممكنة»

قالت بانفورد : «هكذا اذاً ! لقد أنهيتما الموضوع . آمل انكما لن تعيشا لتندما على هذا الفعل»

اجاب : «آمل ذلك ايضاً»

قالت بانفورد : «هل تأوين الى فراشك الان يانيلي ؟»

«أجل ، اني ذاهبة الآن» .

«اذاً هيا اسرعي ، بحق السماء».

نظرت مارتش الى الفتى . كان يسترق النظر اليها والى بانفورد بعينيه الصافيتين . نظرت اليه مارتش نظرة تشوبها اللهفة والحزن . تمنت لو كان باستطاعتها البقاء معه . تمنت لو انها كانت قد تزوجته قبل الان وانهت الموضوع ، لانها ، آه ، قد شعرت فجأة كم كانت آمنه معه ، شعرت بانها آمنة ومطمئنة بوجوده ، آمنة ومطمئنة على نحو غريب جداً . لو انها استطاعت فقط النوم بحمايته ، لا مع جِل . شعرت بخوف من جِل . ففي حالتها الغامضة ، الحساسة كان التزامها بالذهاب مع جِل والنوم معها يعني معاناة . ارادت من الفتى ان ينقذها ، فنظرت اليه مرة اخرى .

وفي اثناء مراقبته بعينين صافيتين تكهن ببعض مما كانت مارتش

تشعر به . فقد حيره وضايقه اضطرارها الى الذهاب مع جل .

«لن انسى ماوعدتِني به» ، قال وهو ينظر بوضوح الى عينيها ، الى عينيها مباشرة . وبذلك بدا يستحوذ عليها تماماً بنظرته الغريبة ، الصافية .

ابتسمت له بضعف وبرفق . ثم شعرت ثانية بالأمان ، بالأمان معه .

ومع كل احتراس الفتى كان امامه عائق . ففي صباح يوم رحيله اقنع مارتش بمصاحبته الى مدينة السوق التي تقع على بعد ستة اميال تقريباً ، حيث ذهبا الى المسجل الشرعي وسجلا اسميهما على انهما شخصان عازمان على الزواج . سيأتي في عيد الميلاد ، اذ يتم الزواج . وتمنى ان يتمكن من اصطحاب مارتش معه في الربيع الى كندا ، بعد ان اتضح الان ان الحرب قد وضعت اوزارها فعلاً . وعلى الرغم من حداثة سنه ، الا انه كان قد ادخر بعض المال .

قال لها : «عليك دائماً تأمين وجود شيء من المال لديك ، ان كان بوسعك تحقيق ذلك» .

صحبته حتى استقل القطار المتوجه الى الغرب . كان معسكره في سهل (سولزبري) . راقبت رحيله بعينين كبيرتين ، داكنتين . وبدا كأن كل شيء حقيقي في الحياة كان يتراجع الى الوراء حينما غادر القطار حاملاً ذلك الوجه الغريب ، الممتليء ، المشرب بالحمرة الذي بدا عريضاً عبر الخدين والذي لم يكن ، على مابدا ، يغير مافيه من تعبير الا عندما تعلو جبينه سحابة من الغضب العابس ، او عندما تتركز عيناه البراقتان في نظرة محدقة . وهذا ماحدث الان . فقد مال

بجسمه من نافذة عربة القطار عندما بدأ القطار يتحرك مغادراً ، وهو يردد عبارات الوداع ويحدق بدوره اليها دون ان يطرأ على قسمات وجهه اي تغير . كان وجهه خالياً من اي احساس ، وعيناه حسب هما اللتان ضاقتا واصبحتا ثابتتين ومصممتين ، وهما تراقبان ، كما يراقب القط عندما يشاهد شيئاً فجأة ويطيل التحديق اليه .. وهكذا حدقت عيناه بتركيز عندما تحرك القطار مغادراً . وتُركت مارتش وهي تشعر بيأس حاد . بغياب وجوده الجسدي بدت كأنها لاتملك منه شيئاً ، بل لم يكن لديها شيء من اي شيء . وجهه فقط هو الذي بقي عالقاً في ذهنها : خداه الممتلئان ، المتوردان اللذان لايتغيران ، وأنفه المستقيم الذي يشبه الخطم ، وعيناه اللتان تحدقان الى اعلى . كل ما استطاعت استذكاره هو كيف كان يفرك أنفه فجأة عندما يضحك ، كما يفعل الجرو عندما يهر عابثاً . اما هو نفسه ، وماذا كان ، فلم تعرف عن ذلك شيئاً ، لم تكن تعرف عنه شيئاً عندما تركها .

في اليوم التاسع من رحيله عن مارتش ، تسّلم هذه الرسالة :

عزيزي هنري

لقد اعدت النظر في المسألة كلها في فكري ـ هذا الامر المتعلق بي وبك ـ وبدا لي انه امر مستحيل .. عندما لاتكون موجوداً ارى ماأحمقني ، وعندما تكون موجوداً فإنك تعمي بصيرتي عن مشاهدة الامور على حقيقتها . انك تجعلني ارى الاشياء كلها غير واقعية او لاادري ماذا . وعندما أجد نفسي مرة اخرى وحيدة مع جِل فإني ، على مايبدو ، أتوب الى رشدي وادرك الى اي مدى ذهبت لاجعل من

نفسي اضحوكة ، كما ادرك أني لاتعامل معك بانصاف ، اذ ليس من الانصاف لك ان استمر بهذه العلاقة عندما لااتمكن من ان اشعر في قلبي باني احبك حقاً . ادرك جيداً ان الناس يتكلمون كلاماً فارغاً كثيراً عن الحب ، ولكني لااريد ان احذو حذوهم . اريد الألتزم بالحقائق الواضحة ، والتصرف بعقل وحسن ادراك . ويبدو لي انني لاافعل ذلك ، لاافهم ابداً ماهي الاسباب التي تدفعني الى ان اتزوجك . اني ادرك جيداً انني لست غارقة في حبك ، كما تصورت نفسي في علاقتي مع بعض الشباب عندما كنت فتاة صغيرة حمقاء . انك شخص غريب عليَّ ـ شخص مجهول جداً او ستبقى كذلك كما يبدو لي . فعلى اية اسس سأتزوجك ؟ وعندما افكر في (جِل) اجد انها في نظري اكثر واقعية بعشرة اضعاف . فإني اعرفها واني مولعة بها ، وسوف اكره نفسي لوحشيتها لو قدر لي يوماً ان اتسبب بإيذاء خنصرها ، فلدينا حياة تجمعنا معاً ، وحتى اذا اخفقت بالبقاء الى الابد فإنها ستكون حياة بقدر ديمومتها . وقد تستمر الى نهاية حياة كل منا . من يدري مامدى ماكُتب لنا ان نعيش ؟ إنها إنسان رقيق واهن ـ لربما لايعرف احد غيري كم هي رقيقة حقاً ، أما أنا فأشعر باني قد اسقط في البئر اي يوم . ان الشيء الذي لايمكنني ان اجد له موقعاً ، على مايبدو ، هو انت نفسك .. وعندما استعيد في ذاكرتي كيف كنت ، وماذا فعلت معك اخشى أني قد فقدت صوابي ، يؤسفني ان اجد ان اختلال قواي العقلية يحصل في وقت مبكر جداً ، ولكن هذا مايبدو عليه الامر . أنك شخص غريب عني تماماً ، وبعيد عن كل ما ألفت من امور ،

كما لايوجد هناك ، على مايبدو ، اي شيء مشترك بيننا .. اما عن الحب ، فالعبارة نفسها تبدو مستحيلة . أني اعرف مامعنى الحب حتى في حالة جِل ، كما اعرف أنه امر مستحيل جداً ضمن هذه العلاقة معك . ثم هناك مسألة الذهاب الى كندا . اني على ثقة بأني قد فقدت عقلي عندما قطعت على نفسي وعداً بالذهاب الى تلك البلاد .. ان ذلك يجعلني اخاف من نفسي كثيراً . اشعر بأني قد اقوم بعمل أحمق في الواقع ـ عمل لاأكون مسؤولة عنه ـ عمل يجرني الى قضاء عمري في مستشفى الأمراض العقلية .. وقد ترى انني لااليق الا لمثل هذا المكان بعد الطريقة التي تصرفت بها . ولكنه رأى لايليق بي . اني احمد الله على وجود جِل هنا ، اذ ان وجودها يدفعني الى الشعور بأني عدت ثانية الى صوابي ، وخلاف ذلك لاادري ماعساي كنت افعل . فقد يقع لي حادث بالبندقية في احدى الامسيات . اني احب جل ، وهي تجعلني اشعر بأني آمنة ، وبأني امتلك صوابي ازاء غضبها الودي لبلوغي هذه الدرجة من الحماقة . حقاً ان ماأريد قوله هو ان نضع نهاية لهذه العلاقة . لايمكنني الزواج بك ، واني في الواقع احجم عن القيام بمثل هذا العمل عندما يبدو لي أنه امر غير صحيح . انه لخطأ كبير . وقد جعلت من نفسي اضحوكة ، وكل ما يسعني عمله هو ان اعتذر لك وارجوك ان تنسى الموضوع كله وان لا تعرني اي اهتمام اطلاقاً . اوشك جلد ثعلبك ان يكون جاهزاً ، ويبدو انه بحالة جيدة . سأرسله اليك بالبريد اذا اخبرتني بان عنوانك الحالي مازال هو العنوان الصحيح ، واذا كنت ستقبل اعتذاري عن الطريقة السيئة وغير المسؤولة التي تصرفت بها

معك ، واذا وافقت على ترك الموضوع كلياً .

جِل تبعث لك بأرق تحياتها . لقد جاء ابوها لقضاء عطلة عيد الميلاد معنا .

المخلصة

إيلن مارتش

قرأ الفتى هذه الرسالة في المعسكر في اثناء قيامه بتنظيف عدته . صك اسنانه بإحكام ، وكاد يشحب لونه وهلة ، فقد احاط الصفار بعينيه من شدة الغضب . لم يقل شيئاً ، لم ير شيئاً ، لم يشعر إلا بالغضب الشاحب المدفوع بعاطفة جامحة . لقد أُحبط ! لقد أُحبط مرة اخرى ! لقد أُحبط . اراد المرأة التي كان قد صمم كالقدر على امتلاكها . شعر بان الحصول على هذه المرأة كان قدره ومصيره وجزاءه . كانت فردوسه وجحيمه على الارض ، ولن يرضى بغير ذلك بديلاً في مكان اخر . وبغضب وجنون مكبوتين أعميا بصيرته قضى صباح ذلك اليوم . ولولا ماكان يدور في فكره من تربص وكيد لارتكب عملاً جنونياً . شعر في اعماق نفسه برغبة في الزمجرة والولولة وصرّ اسنانه وتحطيم الاشياء . ولكنه كان ذا ذكاء مفرط . ادرك ان المجتمع كان رقيباً عليه ، وان عليه ان يخطط للامر . وبفكيه المطبقين ، وانفه المرفوع قليلاً على نحو غريب ، مثل مخلوق شرس ، وعينيه الثابتتين المحدقتين قام بتأدية الواجبات الصباحية ، وقد أسكره الغضب والكبت. لايدور في فكره إلا شيء واحد ! بانفورد لم يأبه للكل ماأفصحت عنه مارتش ، ولا لأي جزء منه بتاتاً . تحركت في نفسه شوكة واحدة ، انغرزت في ذهنه . بانفورد في فكرة ،

في روحه ، في كل جزء من كيانه ،.شوكة تعتمل في صدره ، وتدفعه الى الجنون . كان عليه استئصالها ، كان عليه استئصال شوكة بانفورد من حياته ، حتى لو كلفه ذلك حياته .

وبهذه الفكرة التي رسخت في عقله ذهب لطلب اجازة مدة اربع وعشرين ساعة . كان يعلم جيداً أنه لم يستحقها . كان وعيه خارق الحدة . كان يدرك اين ينبغي له ان يذهب ، كان يجب عليه الذهاب الى النقيب . ولكن كيف يتسنى له الوصول الى النقيب ؟ ففي هذا المعسكر الكبير المؤلف من السقائف الخشبية والخيم لم يكن لديه اية فكرة عن مكان نقيبه هذا .

ولكنه ذهب الى حانوت الضباط . وكان نقيبه واقفاً هناك وهو يتكلم مع ثلاثة ضباط آخرين . وقف هنري في مدخل الحانوت في حالة استعداد .

«هل يمكنني التحدث الى النقيب بيريمان ؟» . كان النقيب كورنوالي مثله .

«ماذا تريد ؟» . نادى النقيب قائلاً

«هل تسمح لي بالتحدث اليك ياحضرة النقيب ؟»

«ماذا تريد ؟» ، اجاب النقيب دون ان يتحرك من بين مجموعة زملائه الضباط .

راقب هنري رئيسه وهلة دون ان يتكلم .

«لن ترفض طلبي ، ياسيدي ، اليس كذلك ؟» ، تساءل بجدية ورصانة .

www.library4arab.com/vb

«يعتمد ذلك على طبيعة الطلب»

«هل يمكنني التمتع باجازة مدة اربع وعشرين ساعة ؟»

«كلا ، وليس من حقك ان تتقدم بمثل هذا الطلب»

«ادرك ذلك جيداً ، ولكن الضرورة تدفعني الى هذا الطلب»

«لقد اجبت عن طلبك هذا»

«لاتطردني ياحضرة النقيب»

كان ثمة شيء غريب في شأن هذا الفتى الذي استمر واقفاً في مدخل الحانوت . وسرعان ماشعر النقيب الكور نوالي بهذه الغرابة ، فنظر اليه بفطنة وذكاء .

«لماذا ؟ ماالامر ؟» تساءل بفضول .

قال «اني في مأزق يخص امرأ ما .. يجب علي الذهاب الى بلوربوري» .

«بلوربوري ؟ سعياً وراء الفتيات ؟»

«أجل ، القضية تتعلق بامرأة ، ياحضرة النقيب ؟» وبينما كان الفتىٰ يقف هناك ، وقد امتد رأسه قليلاً الى الامام ، اعتراه فجأة شحوب شديد ، او اصفرار ، وبدت شفتاه تطلقان ألماً . شاهد النقيب هذا المنظر وشحب قليلاً ايضاً ، ثم اشاح بوجهه جانباً .

«هيا اذاً ، اذهب» ، قال النقيب «ولكن لاتتسبب باثارة اية مشكلة مهما كان نوعها» .

«لن افعل ذلك ياحضرة النقيب . شكراً لك» .

انصرف . شعر النقيب بالانزعاج فتناول قدحاً من الجن مع «البترز» (٧) . تمكن هنري من استئجار دراجة هوائية . كانت الساعة

---

(٧) البترز : سائل ـ يكون غالباً شراباً كحولياً مقطراً ـ تنقع فيه اعشاب او جذور مرة ويستخدم لنكهته خصوصا في المشروبات الكحولية التي تخلط ببعضها ـ المترجم ـ

الثانية عشرة ظهراً عندما ترك المعسكر . وكان عليه قطع مسافة ستين ميلاً من الطرق الفرعية المتقاطعة ، المبتلة ، الموحلة . وفي لمح البصر كان فوق مقعد الدراجة ينهب الطريق نهباً دون ان يفكر في تناول لقمة .

في المزرعة ، انهمكت مارتش في عمل كانت قد بدأت به قبل فترة من الزمن . عند نهاية السقيفة المفتوحة انتصبت مجموعة من اشجار التنوب الاسكتلندي على منحدر حيث امتد سياج المزرعة بين مرجين غطتهما الشجيرات الشائكة . وكانت الشجرة الأبعد ميتة . كانت قد ماتت في الصيف ولكنها بقيت منتصبة بكل مافيها من إبرَ بنية ويابسة. لم تكن شجرة كبيرة ، ولكنها كانت ميتة على نحو مؤكد لايقبل الشك ، فعزمت مارتش على قطعها ، وان لم يكن من حق الفتاتين قطع اية شجرة . غير ان حطبها سيغدو وقوداً رائعاً في هذه الايام التي ندر فيها الوقود .

كانت على مدى اسبوع واكثر توجه خلسة ضرباتها الى الجذع محاولة قطعه ، وهي تقطع بين الحين والاخر دقائق معدودات مبتدئة بالاجزاء السفلى من الجذع ، قرب الارض ، لكي لا تجلب انتباه احد . لم تكن قد حاولت استخدام المنشار منفردة . كان عملاً مضنياً جداً . الان وقفت الشجرة ، في حفرة كبيرة مفتوحة عند قاعدتها ، مرتكزة على عصب واحد - ان صح هذا التعبير - تبدو كأنها تريد ان تسقط ، ولكنها لم تسقط .

كان وقتاً متأخراً من عصر احد ايام شهر كانون الاول الرطبة . وكان السديم البارد يتعالى زاحفاً نحو الفجوات ، والظلمة من الاعلى

توشك ان تطبق . وكان هناك قليل من الاصفرار حيث كانت الشمس تنحدر مختفية خلف الغابات الواطئة البعيدة . اخذت مارتش فأسها وذهبت الى الشجرة . وترددت اصوات الارتطام الخافتة في ارجاء المزرعة على نحو كان الى حد ما غير مؤثر . خرجت بانفورد وهي ترتدي معطفها السميك . ولكنها لم تلبس قبعتها ، فتناثر شعرها القصير ، غير الكثيف بفعل الريح المضطربة التي ترددت في اشجار الصنوبر والغابات .

قالت بانفورد : «ان مايخيفني هو سقوطها على السقيفة ، اذ سنواجه في تصليحها مشكلة اخرى» .

«لااظن ذلك» ، قالت مارتش وهي تعتدل في وقفتها ، وتمرّ ذراعها فوق جبينها الساخن . توهجت حمرة .. كانت عيناها غريبتين ، مفتوحتين باتساع ، وكانت شفتها العليا قد افترقت عن سنيها الاماميتين البيضاوين ، وعلت وجهها نظرة غريبة كادت تشبه نظرة الأرنب .

عبر فناء الدار جاء متلكئاً رجل بدين يلبس معطفاً اسود وقبعة رجالية مستديرة الشكل ، كان وجهه وردي اللون ، وله لحية قصيرة بيضاء وكانت عيناه زرقاوين فاتحتين . لم يكن طاعناً في السن ، ولكنه كان عصبي المزاج ، يمشي بخطوات قصيرة .

قالت بانفورد : «ماذا تظن ياأبتاه ؟ الا تظن أنها قد تصيب السقيفة عند سقوطها» .

«السقيفة ، كلا !» ، قال الرجل العجوز ، «لايمكنها اصابة السقيفة ، بل الاحرى ان تقوّي السياج» .

«لااهمية للسياج» ، قالت مارتش بصوتها الجهوري .

«أخطأت كعهدي دائماً ، اليس كذلك ؟» ، قالت بانفورد وهي تدفع شعرها المتناثر عن عينيها .

وقفت الشجرة كأنها مستندة على وتر واحد ، وهي تميل وتصر في الريح . لقد نمت على ضفة صغيرة ، جافة بين المرجين . وفوق هذه الضفة اندفع الى الاحراج في اعلى التل سياج ملتو . وقد تجمعت اشجار كثيرة في ذلك الركن من الحقل قرب السقيفة ، وقرب البوابة المؤدية الى فناء الدار . ومن الطريق العام امتد الممر المعشب افقياً عبر المروج الكئيبة ، كما انحدر متغلغلاً سياج آخر ملتو ، بقوائم مشققة طويلة ترتبط بالاعمدة القصيرة ، الغليظة ، المتباعدة . وقف الاشخاص الثلاثة خلف الشجرة في زاوية من سقيفة المرج ، فوق بوابة فناء الدار مباشرة . اما البيت فقد وقف بأناقة بسطحيه المتحدرين وشرفته وسط حديقة معشبة ، صغيرة عبر الفناء . وقد خرجت من الدار سيدة قصيرة القامة ، بدينة ذات وجه وردي اللون ، وضعت على كتفها شال صوفي احمر صغير ، ثم اخذت موقعها في الشرفة .

«الم تسقط الى الان ؟» ، صاحت بصوت قصير مرتفع .

«انها لاتزال تفكر في الامر» ، اجاب زوجها ، كانت نبرته ازاء الفتاتين مشوبة دائماً بالسخرية والانتقاد . لم تشأ مارتش الاستمرار بالعمل في اثناء وجوده هناك . اما هو ، فلم يكن راغباً في القيام بأي شيء اذا ما وجد الى ذلك سبيلاً ، ويعاني مثل ابنته ، من آلام الروماتزم في كتفه . وهكذا وقف الثلاثة صامتين وهلة ، في عصر

ذلك اليوم البارد ، في الركن الاخير قرب فناء الدار .

سمعوا صوت قرع البوابة البعيدة ، فمدوا أعناقهم ليروا .... وعلى الجانب الاخر ، فوق المدخل الافقي ، الاخضر اقترب شكل انسان يتأرجح وقد اعتلى دراجته الهوائية ثانية ثم راح يقترب متمايلاً فوق العشب بارتفاع وانخفاض .

«انه احد اولادنا .. انه جاك» ، قال الرجل العجوز .

«هذا غير ممكن» ، قالت بانفورد .

مدت مارتش رأسها لتلقي نظرة .. وحدها التي تمكنت من التعرف الى هذا الشكل البشري ذي الملابس الخاكية . علتها حمرة ، ولكنها لم تقل شيئاً .

«كلا انه ليس جاك .. لااعتقد انه ..» ، قال الرجل العجوز وهو يحدق بعينين صغيرتين ، مستديرتين تحت اهدابه البيض .

ماهي إلا لحظة حتى اخذت الدراجة تتمايل على مرأى منهم ونزل راكبها عند البوابة . كان هنري ، وكان وجهه مبتلاً ، احمر ملطخاً بشيء من الوحل ، كان منظره موحلاً الى حد كبير .

«آه !» صاحت بانفورد كما لوكانت خائفة ، «ياللمفاجأة انه هنري» .

«ماذا !» تمتم الرجل العجوز . كان يتكلم بطريقة سريعة وصوت أجش .. وكان يشكو من بعض الصمم .. «ماذا ؟ من هو ؟ ماهو اسمه ؟ هل هو ذلك الشاب ؟ هل هو صاحب نيلي ؟ أوه ! أوه !» ، واعتلت الابتسامة الساخرة وجهه الوردي واهدابه البيضاء

كان هنري ـ الذي اخذ يدفع شعرات رأسه المبتلة عن جبينه

الملتهب ـ قد شاهدهم ، وسمع ما قاله الرجل العجوز ، بدا وجها الفتي الساخن ملتهباً في الضياء البارد .

«آه ، انكم جميعاً هنا» ، قال وهو يطلق ضحكته المفاجئة القصيرة التي تشبه ضحكة الجرو . كاد لايعرف اين كان من شدة ماشعر به من حرارة وذهول جراء ركوبه الدراجة الهوائية . اسند دراجته الى السياج وصعد الى الزاوية الكائنة في الضفة دون ان يذهب الى فناء الدار .

«حقاً . لابد من القول إننا لم نكن نتوقع مجيئك» ، قالت بانفورد باقتضاب .

«كلا ، لاأظن انكم كنتم تتوقعون ذلك» ، قال وهو ينظر الى مارتش .

وقفت جانباً مسترخية ، وقد حنت احدى ركبتيها ، واسندت رأس الفأس الى الارض من غير احكام . كانت عيناها واسعتين وخاليتين من التعبير ... وشفتها العليا وقد انفرجت عن اسنانها بتلك النظرة ـ نظرة الارنب المتعجب ، العاجزة . وما ان شاهدت وجهه الأحمر المتوهج حتى قضى عليها . وفي اللحظة التي رأت فيها الطريقة التي اخذ فيها رأسها يمتد الى الامام بلغ بها العجز حداً بدت فيه كأنها مقيدة .

«هيا ، من هو ؟ من هو في كل الاحوال ؟» تساءل الرجل العجوز ، المبتسم ، الساخر ، بصوته ذي التمتمة .

قالت بانفورد ببرود : «انه السيد جرفيل الذي سمعتنا نتحدث عنه ، ياأبتاه» .

«سمعتكما تتحدثان عنه ، حقاً ! اننا لم نسمع غير هذا الكلام ، في الواقع» ، تمتم الشيخ وابتسامته القصيرة ، الغريبة ، الساخرة تعلو وجهه . «تشرفت بمعرفتك» ، اضاف ثم مد يده فجأة الى هنري صافح الفتىٰ اليد التي أمتدت اليه وقد أعتراه الجفول هو الآخر أيضاً . ثم أفترق الرجلان عن بعضهما .

«لقد قدمت من سهل سولزبري على دراجتك اذاً ؟» سأل الرجل العجوز .

«اجل»

«انها مسافة طويلة حقاً . كم استغرقت معك الرحلة ؟ وقتاً طويلاً ؟ ساعات عديدة على ماأظن» .

«نحو اربع ساعات»

«هكذا ؟ اربع ! اجل ، على الاقل ! متى ستعود اذاً ؟ »

«عندي اجازة حتى مساء الغد»

«حتى مساء الغد ، حقاً ! اجل . لم تكن الفتاتان تتوقعان مجيئك اليس كذلك ؟»

وبسخرية حوّل الرجل العجوز عينيه الصغيرتين ، المستديرتين ، الباهتتي الزرقة من تحت اهدابه البيض الى الفتاتين . ونظر هنري حوله ايضاً . كان قد شعر بشيء من الإحراج . نظر الى مارتش التي كانت ماتزال تحدق بعيداً كأنها تريد رؤية مكان الماشية . كانت يدها تمسك بمقبض الفأس الذي استند رأسه الى الارض بتراخ .

«ماذا كنتما تفعلان هناك؟» تساءل بصوته الرقيق ، المجامل «تحاولان قطع الشجرة ؟» .

قالت بانفورد : «أجل ، اننا نحاول ذلك منذ اسبوع».

«آه ، وهل قمتما بذلك وحدكما ؟»

قالت بانفورد : «قامت نيلي بالعمل كله . لم اقم انا بشيء»

«حقاً ! لابد انك قد عملت بجهدٍ شديد» ، قال وهو يخاطب مارتش مباشرة وبنبرة غريبة ، هادئة . لم تجب ، بل استمرت تشيح بوجهها نصف اشاحة وهي تحدق بعيداً باتجاه الغابات الى الاعلى ، كأنها في غيبوبة .

«نيلي !» ، صاحت بانفورد بحدة . «ألا تستطيعين الاجابة ؟»

«ماذا ـ انا ؟» ، صاحت مارتش وهي تنظر حولها جافلة وتنقل نظرها من احدهما الى الاخر . «هل كلمني احد ؟»

«انها تحلم !» ، تمتم الرجل العجوز وهو يستدير جانباً ليبتسم . «لابد انها عاشقة . تحلم في النهار !»

«هل قلت لي شيئاً ؟» قالت مارتش ، وهي تنظر الى الفتى كمن ينظر من مسافة غريبة ، وقد بدت عيناها واسعتين مرتابتين وتورد وجهها برقةٍ .

«قلت لابد أنك عملت جاهدة لقطع الشجرة» . اجاب بلهجة مؤدبة .

«آه ، موضوع الشجرة ! قمت بذلك تدريجياً ، كنت أتوقع أنها سقطت قبل الان» .

«اني شاكرة لأنها لم تهوِ في اثناء الليل لتفزعنا حد الموت» ، قالت بانفورد . «دعيني أُنهي المهمة نيابة عنك ، أتسمحين بذلك ؟» قال الفتى .

أمالت مارتش مقبض الفأس باتجاهه . «هل تود ان تفعل ذلك ؟» ، سألته

«اجل ، اذا رغبت» ، اجاب .

«سأكون شاكرة عندما تسقط الشجرة ، هذا كل ما في الأمر» ، أجابت دون أكتراث .

«في أي اتجاه ستسقط» ، تساءلت بانفورد ، «هل ستصيب السقيفة ؟»

قال : «كلا إنها لن تصيب السقيفة» . «أعتقد انها ستقع هناك ، بعيداً عنها تماماً . ولكنها قد تنحرف وتصيب جزءاً من السياج» .

«تصيب السياج !» ، صاح الرجل العجوز : «لماذا تصيب السياج ؟ انها تميل نحو تلك الزاوية ، إذ انها أبعد بكثير من السقيفة ، انها لن تصيب السياج» .

قال هنري : «كلا . لا أظنها ستقع على السياج .. فلديها مجال واسع للسقوط بعيداً . أظن أنها ستسقط بعيداً» .

«آمل ان لاتهوي فجأة الى الخلف لتسقط علينا ، أليس كذلك ؟» تساءل العجوز ساخراً .

«كلا لن يحصل هذا» ، قال هنري وهو يخلع معطفه القصير وسترة بزته : «ايتها البطات ! ايتها البطات عُدن من حيث أتيتن» .

أربع بطات مرقطات بلون بني كن يمشين بخط واحد - يتبعن ذكر بط بلونين ، أخضر وبني - وينحدرن قادمات من المرج العالي لايلوين على شيء . جئن مثل سفن تطفو على بحر مائج ، وهن يهبطن نحو السياج - باتجاه المجموعة الصغيرة من الناس - ويبطبطن بأنفعال

من جاء بخبر هجوم «الأرمادا الأسبانية» .[٨]

«يالكن من مخلوقات حمقاوات ! يـالكن من مخلوقـات حمقاوات !»، صاحت بانفورد وهي تتقدم لطرد البطات.. استمرت هذهِ البطات تقترب بحماسة نحو بانفورد، وهن يفتحن مناقيرهن الصفر المائلة الى الخضرة ، ويبطبطن كما لو كن مندفعات بحماسة ليبحن بشيء .

«لايوجد طعام هنا ، لايوجد هنا اي شيء . عليكن الانتظار وهلة» ، قالت بانفورد تخاطب البطات . «اذهبن من هنا ، اذهبن من هنا ، اذهبن الى فناء الدار».

لم يذهبن ، فصعدت بانفورد على السياج لدفعهن الى وراء ، ولارغامهن على دخول فناء الدار من تحت البوابة. وهكذا ذهبن يتهادين في مشيتهن . يتبع بعضهن بعضاً بحماسة مرة اخرى ، وهن يهززن اعجازهن كما لو كن دعائم جناديل[٩] صغيرة عند انحنائهن للمرور من عارضة البوابة . وقفت بانفورد في اعلى الضفة ، فوق السياج ، وهي تنظر الى الاسفل نحو الثلاث الاخريات .

رفع هنري عينيه اليها ، فألتقت عيناه بعينيها الضعيفتين الغريبتين ، ببؤبؤيهما المدورين ، وهما تحدقان من خلف النظارة .

---

(٨) الارمادا الاسبانية ـ اسطول بحري ضخم جدا ارسله ملك اسبانيه ميبب الثاني ضد انجلترا وملكتها اليزابيث الاولى وذلك في عام ١٥٨٨م . الا انه دمر بفعل العواصف والقوة البحرية الانكليزية .

ـ المترجم ـ

(٩) جناديل ـ جمع جندول ـ اي زورق مدينة البندقية الايطالية الشهير .

ـ المترجم ـ

كان هادئاً جداً . حول نظره الى الاعلى ، وعاين الشجرة الضعيفة المائلة . وعندما نظر الى السماء ، مثل صياد وهو يراقب طيراً طائراً ، فكر في نفسه : «لو قُدر للشجرة فقط ان تسقط في هذا الاتجاه ثم تدور في اثناء سقوطها دوراناً كافياً فان الغصن هناك سيصيبها تماماً حيث تقف فوق تلك الضفة» .

نظر اليها ثانية . كانت تزيح الشعر عن جبينها ثانية بتلك الأيماءة الدائمة . لقد قرر موتها في قلبه ، بدت فيه قوة ثابتة ، رهيبة ، وسلطة كانت خاصة به . فلو تحول مقدار شعرة الى الاتجاه المعاكس لفقد هذهِ السلطة .

«حاذري ياآنسة بانفورد» قال . وتماسك قلبه تماسكاً تاماً بهذه الارادة المجردة الرهيبة ؛ اذ لاينبغي ان تتحرك .

«من ؟ انا ؟ علي ان احاذر !» صاحت وقد عكس صوتها نبرة والدها الساخرة . «لماذا ؟ هل تعتقد بانك قد تصيبني بالفأس ؟»

«كلا ، ولكن يحتمل ان تصيبك الشجرة عند سقوطها» ، اجاب برزانة ... إلا أن نبرة صوته ، كما بدا لها ، أوحت بأن حرصه هذا كان محض زيف وبأنه يحاول أزاحتها لأنه كان قد قرر ان يزيحها .

قالت : «هذا امر مستحيل جداً»

سمعها . بيد انه تماسك بثبات مخافة ان يفقد قوته .

«كلا ، يحتمل ان تصيبك الشجرة عند سقوطها . فمن الافضل لك النزول بهذا الاتجاه»

«حسنا ، إذاً . دعنا نشاهد مثلاً يوضع لنا قطع الشجر بالطريقة الكندية ،» اجابت . «اني جاهز اذاً» ، قال وهو يتناول

الفأس وينظر حوله ليتثبت من عدم وجود مايعيق حركته .

كانت هناك لحظة ترقّب جامدة ، صرفاً عندما بدا العالم في حالة سكون تام . وفجأة توهجت هيأته لتبدو طويلة ومرعبة جداً . سدد ضربتين سريعتين وخاطفتين ، بتعاقب مباشر ، فقطعت الشجرة وهي تنقلب ببطء وتدور بغرابة في الهواء لتهبط مثل ظلام مفاجيء على الارض . لم ير احد سواه ماكان يحدث ، ولم يسمع احد الصرخة القصيرة ، الغريبة التي اطلقتها بانفورد عندما تهاوى الجانب الداكن من الغصن .. وانقض عليها . لم يرها احد وهي تجثم قليلاً وتتلقى الضربة في مؤخرة العنق .. لم يرها احد مطروحة في الخارج ومسجاة ـ كومة صغيرة تختلج ـ عند قاعدة السياج . لااحد سوى الفتى . وقد راقب بعينين صافيتين ، حادتين كما يراقب اوزة كان قد اصطادها ليرى اجرحت في جناحها ام ماتت ؟ بل ماتت !

صاح صيحة عالية فوراً . وفوراً اطلقت مارتش صرخة مدوية ، ذهب صداها بعيداً . بعيداً في تلك الامسية . واطلق الاب صوت خوار غريب .

قفز الفتى من فوق السياج ، وركض الى منطقة الحدث . كان الجزء الخلفي من العنق والرأس كتلة من دم .. من رعب . ادار الجسد جانباً ، وكان يختلج بتقلصات قليلة . بيد ان الفتاة كانت ميتة في الحقيقة . لقد ادرك انها كانت ميتة ، لقد ادرك ذلك في روحه وفي دمه ، كانت الضرورة الداخلية لحياته تحقق نفسها .. كان هو الذي قدرله ان يعيش . لقد استأصلت الشوكة من امعائه . وضع الفتاة برفق على الارض .. كانت ميتة .

نهض . كانت مارتش تقف هناك بسكون تام ، وقد تسمرت رعباً . كان وجهها شاحباً جداً وعيناها بركتين كبيرتين داكنتين . اما الرجل العجوز فكان يندفع مذعوراً فوق السياج .

«اخشى ان تكون الشجرة قد قتلتها» ، قال الفتى .

كان الرجل العجوز يصدر اصواتاً غريبة منتحبة وقد ربض فوق السياج .. «ماذا ؟» ، صاحت مارتش وهي تنتفض من شدة الاثارة .

«اجل ، اخشى ذلك» كرر الفتى .

كانت مارتش تتقدم .. عَبر الفتى السياج قبل وصولها اليه .

«ماذا قلت ؟ قَتَلَتْها ؟» ، تسألت مارتش بصوت حاد وقد ازدادت شحوباً ورهبة . وقف الاثنان احدهما يواجه الاخر . حدقت اليه عيناها السوداوان بنظرة مقاومة اخيرة . وفي اخفاق معذب اخير اخذت تبكي بتقطع . تبكي بطريقة طفل يرفض البكاء ، وهو مسحوق من الداخل ، ويصدر رجفة نشيج قصيرة لم تكن قد اخذت شكل بكاء ـ رجفة نشيج جافة ومخيفة .

كان قد انتصر . وقفت هناك عاجزة تماماً ، وهي تشهق شهقة جافة ، مرتجفة وفمها يرتعش بسرعة . وبانهيار مفاجيء ، كما هي الحال عند الطفل ، انهمرت الدموع مصحوبة بالم بكاء غير مرئي . تهاوت على العشب ، جلست وهي تضع يديها فوق صدرها وقد ارتفع وجهها بنشيج غير مرئي . وقف وهو ينظر اليها من فوق ـ ينظر الى مظهرها الخارجي الصامت ، الشاحب الذي لايتغير . لم يتحرك ، بل استمر ينظر اليها من فوق . ووسط عذاب هذا المشهد

وعذاب قلبه واحشائه كان سعيداً لانه انتصر .

بعد فترة طويلة انحنى عليها ، وتناول يديها .

«لاتبكي» ، قال بلطف «لاتبكي».

رفعت بصرها اليه والدموع تنهمر من عينيها . كان في عينيها نظرة عجز واستسلام . وهكذا حدقت اليه وكانها قد فقدت البصر ، ومع ذلك كانت تنظر اليه نظرة اكبار واحترام . إنها لن تتركه ثانية ابداً . لقد فاز بها . ادرك ذلك وكان فرحاً ، لانه ارادها لحياته . كان لابد لحياته من الحصول عليها ، وقد فاز بها الان . كان هذا ماينبغي لحياته ان تملك .

ولكنه ان كان قد فاز بها فانه لم يكن قد ملكها . تزوجها في عيد الميلاد كما كان قد خطط ، وحصل مرة اخرى على اجازة مدة عشرة ايام . قضيا شهر العسل في مقاطعة كورنوال ، حيث ذهبا الى قريته الواقعة على البحر . ادرك ان بقاءها في المزرعة بعد ذلك كان أمراً فظيعاً لها .

ولكن على الرغم من انها قد اصبحت له ، وعلى الرغم من انها عاشت في ظله ، كانها لم تكن قادرة على الابتعاد عنه ، الا انها لم تكن سعيدة . لم تشأ تركه : ومع ذلك لم تشعر بحرية وانطلاق معه . بدا كل شيء حولها يراقبها . بدا كل شيء يضغط عليها . لقد فاز بها واخذها معه ، واصبحت زوجته اما هي فقد اصبحت ملكه ، وقد ادركت ذلك . ولكنها لم تكن فرحة ، وكان هو مايزال مغلوباً على امره . وعلى الرغم من زواجه بها ، وامتلاكه اياها بكل طريقة ممكنة على مابدا ، وعلى الرغم من انها ارادته ان يمتلكها ـ وارادت ذلك

فعلاً وما ارادت الان شيئاً اخر ـ الا أنه ادرك ، مع ذلك ، انه لم يكن قد حقق نجاحاً تاماً .

شيء ماكان مفقوداً . فبدلاً من ان تهتز روحها بحياة جديدة بدت تبتئس ، تقنط ، تنزف ، كما لو كانت جريحة . كانت تجلس فترات طويلة وهي تضع يدها في يده ، وتنظر بعيداً الى البحر وفي عينيها الداكنتين ، الفارغتين ثمة جرح . كما بدا وجهها شاحباً ، واذا كلمها كانت تلتفت اليه بابتسامة باهتة جديدة ـ الابتسامة القصيرة ، المرتجفة ، الغريبة لامرأة ماتت بطريقة الحب القديمة ، ولايمكنها الارتقاء تماماً الى الطريقة الجديدة . فهي مازالت تشعر بوجوب القيام بشيء ما لترهق نفسها في مجال معين . لم يكن هناك مايمكنها القيام به .. ولامجال يمكنها ان ترهق فيه نفسها .. كما لم يكن بوسعها التسليم بالانغمار الذي فرضه عليها حبه الجديد . فاذا كانت عاشقة فقد كان عليها ان تجهد نفسها في المحبة ، تجهد نفسها حباً .. فقد احست بالحاجة المرهقة في يومنا هذا الى ان تجهد نفسها في الحب ، ولكنها ادركت أن عليها في الواقع ان لاترهق نفسها في الحب بعد ذلك . فهو لن يقبل الحب الذي كان يُفني نفسه فيه . وهذا ماجعل جبينه يسود . كلا ، لن يدعها تفني حبها فيه . كلا ، كان عليها ان تكون سلبية ، وان تذعن ، وان تنغمر تحت سطح الحب . كان عليها ان تكون مثل الاعشاب البحرية التي كانت تنظر اليها بتبحر من القارب ـ هذه الاعشاب التي تتمايل ابداً برقة تحت الماء ، وقد نشرت اليافها الرقيقة كلها فوق المد ـ وهي حساسة : حساسة جداً ، ومتفتحة داخل البحر الظليل ـ لاترتفع

ابداً لتنظر فوق سطح الماء طوال حياتها . لاتنظر ابداً ! .. لاتنظر ابداً من الماء الا بعد موتها . عند ذاك فقط تكون جثثاً تغسّل فوق سطح الماء . اما في اثناء حياتها ، فهي ابداً مغمورة تحت الامواج .. وتحت الامواج قد تكون لها جذور قوية ـ اقوى من الحديد : لابل قد تكون متماسكة ، وخطيرة في تموجها الناعم داخل المد . وقد تكون اقوى تحت الماء ، واشد مقاومة للفناء من شجر السنديان الصامد على الارض . ولكنها ابداً تحت الماء ، ابداً تحت الماء . وكان على مارتش ان تكون كذلك لكونها امرأة .

بيد انها قد كانت اعتادت الضد تماماً . كان عليها ان تتدبر امر الحب والحياة والمسؤولية كلها . ويوماً بعد يوم كانت قد اعتادت تحمل مسؤولية اليوم القادم ، والعام القادم ، وحالة عزيزتها جِل الصحية وسعادتها وراحتها . وبطريقتها المحدودة الخاصة شعرت يقيناً بانها كانت مسؤولة عن راحة العالم ورفاهيته . وكان هذا الشعور محفزاً كبيراً لها ـ هذا الشعور العظيم بانها كانت مسؤولة عن راحة العالم ورفاهيته ضمن محيطها الصغير .

وقد اخفقت .. ادركت ذلك ، حتى بطريقتها المحدودة ـ ادركت انها قد اخفقت في اشباع شعورها بالمسؤولية . كان امراً صعباً . لقد بدأ هيناً وعظيماً في البداية . ولكنها كلما حاولت اكثر ، ازداد الامر صعوبة . ولقد بدا ان اسعاد مخلوقة حبيبة امر سهل جداً . وكلما حاولت اكثر ازداد الاخفاق سوءاً . كان امراً لايطاق . كانت طوال حياتها تريد الوصول .. تريد الوصول .. وقد بدا ماكانت تريد

الوصول اليه قريباً جداً حتى بلغت اقصى حدودها .. وكان ابداً دون قدرتها .

دائماً وابداً دون قدرتها ، دونها على نحو مبهم ، دونها على نحو لايمكن فهمه بوضوح . ولم يبق لها في النهاية سوى العدم . فالحياة التي سعت اليها ، والسعادة التي سعت اليها ، والرفاهية التي سعت اليها ـ انسابت جميعها ، وضاعت ، واصبحت وهمية كلما حاولت ان تمد يدها ابعد . لقد ارادت هدفاً ما ، شيئاً نهائياً ، فلم يكن هناك شيء ، بل دائماً : هذا الوصول المروع ، الوصول ، الكفاح من اجل الوصول الى شيء قد يكون قريباً حتى من اجل اسعاد جِل . فقد كانت سعيدة بموت جِل ، اذ كانت قد ادركت انها لن تستطيع ان تحقق لها السعادة . كان استمرار قلق جِل وتضايقها يزيدانها نحافة وضعفاً ولم تقل آلامها ، بل ازدادت سوءاً .. وكان الامر سيبقى دائماً على هذه الحال . كانت سعيدة بموت جِل .

ولو قدر لجل الزواج برجل ما لما تغيرت الحال . تكافح المرأة ، تكافح لاسعاد الرجل ، تكافح ضمن حدودها من اجل رفاهية عالمها ، ولاتحصد سوى الفشل . نجاحات صغيرة ، حمقاء في المال او في الطموح . اما في ذلك الامر نفسه ، حيث ارادت تحقيق النجاح اكثر من اي شيء اخر ـ عبر الجهد المؤلم في سبيل اسعاد شخص عزيز ، وجعله كاملاً ـ كاد يكون الاخفاق مفجعاً . لقد اردت ان تسعد حبيبك ، وبدت هذه السعادة سهلة المنال دائماً لو انك فعلت هذا وذاك وغيره حسب ، وانك قمت فعلاً بهذا وذاك وغيرهما من الاعمال بنية صافية ، ففي كل مرة يصبح الاخفاق اكثر ترويعاً . قد

تُفني روحك حباً ، وتحاول ماستطعت جاهداً لتحقيق السعادة ، ومع ذلك تسير الامور من سييء الى اسوأ . انه خطأ السعادة المروع .

مسكينة مارتش ! وبسبب حسن نيتها ، وشعورها بالمسؤولية اجهدت نفسها حتى بدا لها ان الحياة كلها ، وكل شيء لم يكن سوى هاوية مرعبة من العدم ، فكلما حاولت الوصول الى زهرة السعادة القاتلة التي ترتجف داخل شق بزرقتها وجمالها الشديدين ، وهي دون قبضتك يزداد ادراكك المخيف حجم هذه الهوة السحيقة تحتك التي ستسقط فيها لامحالة ، كما تسقط في حفرة لاقرار لها لو حاولت وصولاً ابعد . انت تقطف زهرة بعد اخرى لتجد أنها ليست الزهرة التي تريد اطلاقاً . اما الزهرة نفسها : فكأسها هي الهاوية السحيقة ـ وهي الحفرة التي لاقرار لها .

ذلك هو التاريخ الكامل للبحث عن السعادة ، سواء كان ذلك سعادتك انت او سعادة شخص آخر تريد الحصول عليها . فهي تنتهي ـ كما تنتهي دائماً ـ الى هذا الشعور المروع بالعدم الذي لاقرار له وستسقط فيه لامحالة اذا ماجهدت نفسك اكثر .

اما النساء ، فأي هدف غير السعادة يدور في مخيلة المرأة ؟ ليس اكثر من تحقيق السعادة لنفسها وللعالم كله . ذلك وحده ولاشيء غيره .... وبذلك تضطلع بالمسؤولية ، وتمضي قدماً الى هدفها .. انها تستطيع رؤيته هناك ، عند اسفل قوس قزح ، او انها تستطيع رؤيته على مسافة ابعد بقليل ، في المدى الازرق . ليس بعيداً ، ليس بعيداً .

ولكن نهاية قوس قزح هي الهوة السحيقة التي لاقرار لها والتي يمكن ان تسقط فيها الى الابد . والمدى الازرق هو حفرة جوفاء باستطاعتها ابتلاعك ، وابتلاع جهودك كلها في غياهب فراغها ، ولايكون ثمة شيء اكثر منها فراغاً . انت وجهودك كلها . وهذا هو : وهم السعادة التي يمكن تحقيقها .

مسكينة مارتش . كانت قد شرعت على نحو رائع للانطلاق نحو الهدف الازرق . وكلما توغلت اكثر ، واكثر ، اصبح ادراك الفراغ اكثر رعباً . إنه ألم مبرح وجنون في النهاية .

كانت سعيدة بانتهاء الامر ، سعيدة بالجلوس على شاطيء البحر والنظر غرباً الى امتداد البحر ، وهي تدرك ان الجهد كان قد انتهى ، وانها لن تجهد نفسها من اجل الحب بعد ذلك . كانت جِل ميتة وآمنة . مسكينة جِل ، مسكينة جِل . لابد ان يكون الموت لذيذاً .

اما هي ، فلم يكن الموت قدرها ، كان عليها ان تترك قدرها للفتى . وماذا عن الفتى ؟ انه اراد اكثر من ذلك . ارادها ان تعطي نفسها دون مقاومة ، ان تغطس ، ان تنغمر فيه . اما هي فقد ارادت ان تجلس بسكون ـ كأمرأة وصلت المَعْلم الاخير ، المرحلة الاخيرة ـ وتراقب . ارادت ان تشاهد ، وان تدرك او ان تفهم . ارادت ان تنفرد بنفسها وان يكون هو الى جانبها .

وهو ! لم يكن يريد لها الاستمرار بالمراقبة بعد ذلك ، والاستمرار بالمشاهدة والتفهم . اراد ان يحجب روح المرأة لديها كما يحجب الشرقيون وجه المرأة . ارادها ان تلزم نفسها به ، وان تقضي على

روحها المستقلة . اراد ان يسلبها كل ما لديها من جهد ، وكل مابدا سبباً اساسياً لوجودها . ارادها ان تذعن ، ان تستسلم ، ان تموت دون تبصر ، بعيداً عن وعيها العنيف ، المتقد . اراد ان يسلبها وعيها ليجعل منها امرأته ، ليس اكثر ، امرأته ليس اكثر .

وكانت متعبة جداً ، متعبة جداً مثل طفل يريد الاستسلام للنوم ، ولكنه يقاوم . يقاوم النوم لكأن النوم هذا هو الموت . بدت كأنها توسع عينيها اكثر بمحاولة عنيدة ، وبتوتر للبقاء مستيقظة . اصرت على البقاء مستيقظة . ارادت ان تدرك . ارادت النظر في الامور والحكم عليها واتخاذ القرار في امرها . ارادت ان تمسك بيدها زمام حياتها الخاصة . ارادت ان تبقى امرأة مستقلة الى النهاية . ولكنها كانت متعبة جداً ، متعبة من كل شيء وبدا النوم قريباً .. وكان لدى الفتى مجال كبير للراحة .

ومع ذلك ، ها هي تجلس هناك ، في كوة وسط أجرف كورنوال الغربية ـ تلك الاجرف العالية المقفرة ـ وهي تراقب البحر غرباً . كانت تفتح عينيها باتساع اكبر . تنظر بعيداً الى الغرب : كندا ، امريكا . ارادت ان تعرف ، ارادت ان تعرف ماكان ينتظرها . اما الفتى الذي جلس الى جانبها وهو ينظر الى الاسفل ـ الى طيور النورس ـ فقد ارتسمت بين حاجبيه سحابة ، وكان في عينيه توتر الاستياء والتبرم . ارادها نائمة بسلام في داخله .. ارادها نائمة بسلام في داخله . وهاهي تموت تعباً من يقظتها . ومع ذلك ، فانها لم تكن تريد النوم . لن تنام .. كلا ، مطلقاً . احياناً كان يفكر بمرارة

www.library4arab.com/vb

في انه كان عليه ان يتركها . كان عليه ان لايقتل بانفورد مطلقاً . كان عليه ان يترك بانفورد ومارتش تقتل احداهما الاخرى .

ولكن ذلك كان مجرد نفاذ صبر لاغير . وقد أدرك ذلك . كان ينتظر الذهاب الى الغرب . كاد يتحرق قلقاً وتعذيباً لترك انجلترا وللذهاب الى الغرب ، ولاصطحاب مارتش معه وليترك هذا الساحل . اعتقد انهما ما ان يعبرا البحار ، ما ان يتركا انجلترا التي كرهها كثيراً - لانها بطريقة مابدت كأنها قد لسعته لسعة مسمومة - حتى تخلد الى النوم . سوف تغلق عينيها اخيراً ، وتستسلم له .

عند ذاك سيحصل عليها ، ويمتلك زمام حياته هو ، اخيراً . لقد غضب ، شاعراً بانه لم يكن قد امتلك زمام حياته وانه لن يتمكن من ذلك مطلقاً حتى تستسلم وتنام داخله . سيمتلك انذاك حياته الخاصة شاباً وذكراً ، وستمتلك هي حياتها امرأةً وانثى . وسينتهي امر هذا الاجهاد المروع . لن تكون رجلاً بعد ذلك ، بل امرأة مستقلة تحمل مسؤولية رجل .

كلا ، بل ستضطر الى ان تسلمه حتى مسؤولية نفسها . كان يعلم ان الامر سيكون كذا ، فقاومها باصرار منتظراً الاستسلام .

«سوف تشعرين بوضع احسن متى ماذهبنا عبر البحار ، ووصلنا كندا» ، قال لها في اثناء جلوسهما بين الصخور على الجرف .

نظرت بعيداً الى افق البحر كأنه لم يكن حقيقياً ، ثم التفتت لتنظر اليه نظرة غريبة متعبة ، نظرة طفل يناضل بشدة ضد النوم .

«حقاً ؟» ، تساءلت .

«اجل» ، اجاب بهدوء .

وسقط جفناها بحركة بطيئة وقد أشغلهما النوم بلا وعي . ولكنها سحبتهما وفتحتهما مرة اخرى لتقول :

«اجل قد اشعر بوضع احسن . لايسعني التكهن كيف ستكون الامور هناك» ثم قال بنبرة يشوبها الالم . «لو كان بمستطاعنا فقط الذهاب قريباً» .

صدر عن دار المأمون الكتب التالية المترجمة الى العربية

العنوان	المؤلف	المترجم
١ - فن الرواية	كولن ولسن	محمد درويش
٢ - بين الفن والعلم	دولف رايسر	د . سلمان الواسطي
٣ - شكسبير والانسان المستوحد	جانيت ديلون	جبرا ابراهيم جبرا
٤ - الحداثة	مالكم برادبري وجيمس ماكفرلن	مؤيد حسن فوزي
٥ - كلب الصيد الابيض ذو الاذن السوداء	جفرييل ترويبولسكي	عبدالواحد محمد
٦ - مدن لا مرئية	ايتالو كالفينو	ياسين طه حافظ
٧ - بلاد الثلوج	ياسونارى كاواباتا	لطفية الدليمي
٨ - السيدة دالاواي	فرجينيا وولف	عطا عبدالوهاب
٩ - جن	الان روب غرييه	سعيد علوش - خديجة بناني
١٠ - العاصفة	وليم شكسبير	جبرا ابراهيم جبرا
١١ - عطيل	وليم شكسبير	جبرا ابراهيم جبرا
١٢ - الملك لير	وليم شكسبير	جبرا ابراهيم جبرا
١٣ - هاملت	وليم شكسبير	جبرا ابراهيم جبرا
١٤ - مكبث	وليم شكسبير	جبرا ابراهيم جبرا

١٥ ـ دليل مترجم المؤتمرات	جان هيربرت	سمير عبدالرحيم الجلبي
١٦ ـ رباعية الحرب	جورج ماكبث	ياسين طه حافظ
١٧ ـ صناعة المسرحية	ستيوارت غريفتش	عبدالله الدباغ
١٨ ـ القطار السريع	ارمكارد كوين	اقبال ايوب
١٩ ـ حبة قسح	نغوغي واثيونغو	سلمان حسن ابراهيم
٢٠ ـ معجم التعابير الاجنبية في اللغة الانكليزية	ب .أ .فثيان	سمير عبدالرحيم الجلبي
٢١ ـ الازهار البرية	ارسكين كالدويل	علي الحلي
٢٢ ـ قبو البصل وقصص المانية اخرى	٢٠ قاصاً المانياً	د . سامي حسين هاشم
٢٣ ـ مصطلحات المؤتمرات	جان هيربرت	سمير عبدالرحيم الجلبي

ـ يصدر قريباً ـ

العنوان	المؤلف	المترجم
اللغة في الادب الحديث (التجديد والتجريب)	جاكوب كورغ	ليون يوسف برخو وعمانوئيل عزيز
المعنى الادبي	وليم راي	د . يوئيل يوسف عزيز
جويس	جون غروس	عبدالوهاب الوكيل
محاضرات نابوكوف في الادب الاوربي	فريدسون بورز	ناجي صبري الحديثي

القوة والمجد	غريهام غرين	ناجي صبري الحديثي
الرجل العاشر	غريهام غرين	هادي عبدالله هادي
طريق فلاندرا	كلود سيمون	باسيل مدني بطرس
الخطوات الضائعة	اليغو كاربنتر	سالم شمعون
موسوعة المسرح	جون رسل تيلر	سمير عبدالرحيم الجلبي
مذكرات ماكس مالوان	ماكس مالوان	سمير عبدالرحيم الجلبي

تصميم الغلاف : سلمان داود الشهد

www.library4arab.com/vb

www.library4arab.com/vb

الثعلب

قصة فتاتين عانسين هما «مارتش» و«بانفورد» أختارتا العيش معاً في بيت ريفي وسط مزرعة نائية ومنعزلة عن الناس ، وحددتا نمط حياتهما وعاشتا راضيتين . وكانت احداهما تكمل الاخرىٰ ، فقد وجدت بانفورد ، المهذارة والحادة المزاج ، الأمن والطمأنينة في القوة الهادئة التي انطوت عليها شخصية مارتش . ثم يدخل حياتهما شخص ثالث هو جندي شاب يصل في أحد الأيام الىٰ المزرعة التي عاش فيها صبياً بصحبة جده ، فيهز حياة الفتاتين الهانئة هزاً عنيفاً ، إذ يحولها الىٰ حلبة صراع مكشوف وحاد مرة ، وخفي وهادىء مرة بعد أن يرتبط بمارتش بعلاقة ويقرر أن يتزوجها . وتتمخض الاحداث أخيراً عن التخلص من بانفورد ، إذ تهوي صريعة ، والزواج بمارتش .

تعد رواية الثعلب من الأعمال الرائعة التي تصور الرغبة الجامحة والانغماس في الشهوات الحسية بأسلوب قصصي يبتعد كلياً عن الكتابات الأدبية الإباحية والتصوير الذي يستهدف عكس الجانب الداعر من العلاقات الانسانية . وبقيت هذه الرواية مغمورة نسبياً بفعل المعارك القضائية والمنازعات الأدبية التي واكبت نشر رواية عشيق الليدي تشاترلي .

وجدير بالذكر انه لم يسبق لأية دار نشر عربية أن نشرت نصاً مترجماً لهذه الرواية .

السعر : ۸۰۰ فلس

دار المأمون للترجمة والنشر

طبع بمطابع دار الحرية للطباعة ـ بغداد